الصعلوك البطل في الحياة الجاهلية

الدكتورة/ وفاء مطاوع

جامعة الإسكندرية – كلية الآداب

ملخص البحث

حاول البحث أن يعيد النظر فى مفهوم البطولة التى هى العمل المميز الذى يقوم به أفراد من الناس أتاهم الله قدرة خاصة فى الجسد أو العقل أو العلم أو الفن، وهذه البطولة ليست مطلقة تنطبق على كل زمان ومكان، بل هى نسبية، مرتبطة بالظروف الاجتماعية، والثقافية، والدينية، لذا ما يعدُّ بطولةً فى مجتمع ما فى زمن ما قدلا يعدّ كذلك فى المجتمع نفسه فى زمن آخر.

وهذا ما نراه مجسداً فى حياة الصعاليك العرب فى زمن الجاهلية، كانوا أبطالاً بمقاييس الحياة الجاهلية يأخذون من الغنى ماله ليمنحوه للفقير والمريض والجائع والسائل والمحروم. كانوا أبطالاً فى شجاعتهم وحروبهم وصبرهم على قسوة الصحراء، وشراسة وحوشها، ولهيب حرَّها، كانوا يتمتعون بقوة جسدية تتمثل فى القدرة الفذة على العَدْو لمسافات طويلة، وتسلق الجبال، والذكاء الوقَّاد كانوا كرماء، أسخياء، أصحاب مبادىء ومكارم أخلاق. كانوا معاندين لقبائلهم لأنهم أهانوهم، وأهدروا كرامتهم، وأطلقوا عليهم الغرب " الأغربة " لسواد كان بمعظمهم، ورجولة، وخشونة وبالرغم من ذلك كانوا فيما بينهم ملتزمين بقواعد صارمة، تجعل لقائدهم الأمر والنهى عليهم بلا نقاش.

كانت بهم وحشية، ولكن كان فى بعضهم رقة الشاعرية ورهافة الفن، وشوق الإنسان، وحب العاشق والألم من الحرمان، كان منهم شعراء تركوا لنا شعراً شفافاً، فيه إباء وصلف، وعزة، ورجولة، وفيه بكاء صامت، وشوق لحبيب غائب، ورغبة حارقة للعودة للحياة المستقيمة التى كان يحياها قبل أن يتصعلك.

كان شعرهم الذى تركوه لنا فى ثراثنا العربى هو الرصيد الغنىّ الذى منحنا فرصة التجول فى أركان نفوسهم وشطحات عقولهم، وأشواق قلوبهم.

كانوا يعيشون فوق سطح صفيح ساخن، ويعلمون تماماً أنهم مقتولون، أو مقبوض عليهم بجرائرهم ومحاسبون حساباً عسيراً، ولكنهم كانوا مصممين على تمردهم وثورتهم وعنادهم.

ولم يكن من الممكن أن نترك آثارهم الشعرية المتناثرة فى كتب التراث دون الوقوف أمام عمل فنى متكامل لنجوس فى جنياته ليضيف إلينا ما يضيف ويكمل المسيرة، وكان ذلك من خلال قصيدة الشنفرى .

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت

وما ودعت جيرانها إذْ تولَّتِ

وكانت قصيدة بديعة، وحكاية ممتعة، فيها الصفات الفنية لشعر الصعاليك، التى جمعناها من شواهد متناثرة، وفيها حب الشنفرى لأم عمرو، وصعلكته بين إخوانه فى أرجاء الصحراء الفسيحة، وحديثه عن خاله تأبط شراً خاله، قائد كتيبة الصعاليك التى منها الشنفرى الذى يأتمر بأمره هو وفصيله، وعرضه لعادات وتقاليد الصعاليك فيما بينهم. إنها كتيبة عسكرية تقاتل عدواً محدداً، لأهداف محددة، ولا مكان للتخاذل لأى سبب، وفى القصيدة يحدثنا الشنفرى على قتله لقاتل أبيه فى المكان نفسه بالطريقة نفسها، والقسوة عينها، ثم يصل الشنفرى فى نهاية قصيدته إلى الالتفات إلى سريرة نفسه. فى حالة من حالات " حديث النفس "للنفس، ومواجهة الواقع بشجاعة وجراءة، وواقعية ويكتشف أنه كان يتمنى أن يعيش فى قبيلته كما يعيش بقية الناس ولكن القبيلة ضنت عليه وألقته للوحوش فى الصحراء فريسة سهلة وشوكة فى جنب قبيلته، وكل قبائل العرب. ويعود البحث بعد هذه الجولة، إلى سؤال البحث: هل الصعلوك بطل ؟ ليقول البحث: نعم بطل فى العصر الذى عاش فيه، والمجتمع الذى تربى فيه، والتقاليد التى تحكمّت فيه، وأفرزت منه صعلوكاً ثائراً، عنيداً، وحين تغيرت المفاهيم، وظهرت مبادى الإسلام، صار من الصعب قبول هذه الفئة من المجتمع على أنها أبطال. ويرى البحث ألاَّنخرجهم من إطار عصرهم الجاهلى لنمنحهم صفة البطولة، وإن أخرجناهم من هذا الإطار لن يكونوا إلاّ لصوصاً، متوحشين، سفاكين للدماء، وليسوا بأبطال.

Summary

The research tried to reconsider the concept of the bravery which is the distinctive / uncommon act which is carried out by members of the people given by Allah a special ability in the body, mind, knowledge or art, and this bravery is not absolute and is applied in every time and place, but it is a relative, related with social, cultural and religious conditions, so what is considered a bravery in a community in a time when it will not considered the same in this community in another time. This is characterized in the life of Arabs Ragamuffins (Tramps; Vagabonds) in the Pre-Islam time, when they were heroes upon the bravery standards of the people's life of Pre-Islam time as they were taking money from the rich persons to give this money to the poor, sick ,hungry, petitioner and deprived persons. They were heroes in their courage, their wars, their patience on the harshness of the desert, the ferocity of the monsters, the flames of the heat.

They were physically strong as this is represented in their unusual ability in running for long distances, climbing mountains, intelligence. They have been kind, generous, owners of the principles and good manners.

They were defying their tribes because they are insulted and wasted their dignity, so the Western- counties called them "Crows=Al-Aghribah" because most of them had black skin, manliness, harshness. However, among them were persons who are committed to strict rules, make their commander order and prevent them without discussion.

They were brutal, but they have delicacy of feelings and Art, human's yearning, love of the lover and the pain of deprivation. They had poets who left us transparent poetry with arrogance, pride, manliness, silent crying, and Eagerness of the absent lover and strong desire to return to correct life, which was witnessed before being tramp.

The poetry they left to us in the Arab heritage was the rich Balance giving us a chance to understand and know their souls, the wanders of their minds, and the Hankering of their hearts.

They lived in hard conditions, they know exactly that they will be killed or arrested for the crimes they committed and will be punished thereof, but they were insisted on rebellion and revolution and their stubbornness.

It was not possible to leave their poetry scattered in poetic heritage books without standing in front of an integrated art work for reviewing it to add to us what it adds and complements the poetic knowledge, it was through a poem of Shanfari. Oh Om Amro collected and travelled

Without saying goodbye to her neighbors when she went out it was wonderful poem, interesting story, containing the artistic qualities of the Tramps' poetry, which we collected from the scattered evidences, included Shanfari's love to Om Amro, as being a tramp among others in the spacious desert, and his talking about his uncle, commander of Tramps whose orders and requests are obeyed by Shanfari and all tramps, and his presentation of the customs and traditions of Tramps among them.

It is a military contingent fighting a specific enemy, for specific targets, there is no place for weakness for any reason, and in the poem Shanfari tells us about killing the murderer of his father in the same place, in the same way and the same cruelty, then Shanfari at the end of his poem pay attention to his bed. In the case of "self talk" and facing reality with courage, hardiness and reality, he discovers that he hoped to live in his tribe like the rest of people.

However the tribe disappointed him and threw him to the monsters in the desert to be easy prey and obstacle in his tribe and all the Arab tribes.

After this round, the research returns back to the research question: Is the Tramp a champion? So the Search says: Yes he was a champion in the era in which he lived, and the community, which raised him, and traditions which controlled him, and produced him as flustered, stubborn tramp.

When the concepts changed and the principles of Islam appeared, it became difficult to accept this category of society as heroes. The Search accepts to keep them in the context of the pre-Islam time to give them the status of the bravery. If we keep them out of this frame, they will be only considered as being thieves, savage, bloodthirsty killers, and are not heroes.

هل الصعلوك بطل؟!

سؤال استوقفني في دراستي للتراث الأدبي: وكيف يكون صعلوكاً وبطلاً؟ ومن أين تأتي له البطولة وهو لصٌ؟!.

كان عليَّ أن أسأل المصادر اللغوية والأدبية عن "الصعلكة" لأبحث لها عن مكان في عالم البطولة، تلك الكلمة المطاطة المتغيرة بتغير الأحوال وتطور الإنسان. ومن البديهي أن أكون في مسرح العمليات، عمليات الصعلكة وأنشطتها في حياة هؤلاء العرب الذين تجسدت فيهم الحياة الجاهلية، بعاداتها وتقاليدها. وناموسها الصارم، وتوزيع المال فيها بين أفرادها، وقيمة الإنسان فيها والسلاح ورخص الدماء، ووحشة الصحراء. والضياع في متاهاتها، والرحلة: رحلة الذهاب الذي له إياب، وذلك الذهاب الذى لا إياب فيه، حين يعترض القافلة فريق من الصعاليك، ينهبون ويذبحون ويقضون قضاءً مبرماً على المسافرين، المسافرين الذين كانوا يودون قضاء حوائجهم في شمال الجزيرة أو جنوبها، ينتظرهم أهلوهم وأبناؤهم وأحباؤهم.

كل هذه الظروف وغيرها. كان عليَّ أن أتوقف أمامها. لأنها المهاد الذي أنجب هذا النبات الشوكي الذي يسمونه "الصعلكة"، وأن أفحصَ ملَفَّه لأضع يديّ على معايير هؤلاء الناس الذين أزعجوا ذويهم وعشيرتهم، وبخاصة الأغنياء منهم، بعد أن حكم عليهم الصعاليك بالقتل شاءوا أمْ أبوْا، وحكموا على مالهم بأنه حق للسائل والمحروم .

وأقرأ لعروة بن الورد[1]

---

(١)الأصمعيات– ص٤٥، ت/ أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط/ دار المعارف بمصر، الثانية، ١٩٦٤م.

لَحـــاَ الله صُـــعلوكا إذا جَـــنَّ لَيْلُـــهُ مضى في المُشاش آلِفاً كلَّ مجْزر[1]

ولتأبط شراً[2]

قليـــل غـــرارِ النـــوم أكبـــر همِّـــه دمُ الثـأر، أو يَلْقـى كَمِيًّـا مُسْـقَّعاً[3]

وللسُّلَيْكِ بين سُلُكَة[4]

ومـــا نلتهـــا حتـــى تَصَـــعْلَكتُ حِقْبَـــةً وكـــدْتُ لأســـباب المنيـــة أَعـــرفُ[5]

وحتـــى رأيـــت الجـــوع بالصـــيف إذا قمـت تغَشَّـاني ظـلالَ فأسْـدِف[6]

وللشنقري[7]

لا تقبرونـــــي إن قبـــــري مُحـــــرَّمٌ علـيكم، ولكـن أبشـري أمَّ عـامرِ[8]

إذا احتملـــت وفـــي الـــرأس أكثـــره وغـودر عنـد الملتقـى ثـمَّ سـائري[9]

هنالـــك لا أرجـــو حيـــاةً تســـرني سـمير الليـالي مُبْسَـلا بـالحرائر[1]

---

(١)لحاه الله: قَبَّحهُ ولعنه، المُشاش: رءوس العظام اللينة التي يمكن مضغها، المجزر: مكان الذبح.

(٢)شرح ديوان الحماسة – ٤٩٢/١، ت/ أحمد أمين وهارون، ط/ دار الجيل، بيروت.

(٣)غِرار النوم: نوم أقل من القليل، الكميُّ: الفارس، المُسقَّعُ الوجه: الذي أحمرّ وجهه من تعرضه للريح الحارة.

(٤)الأغاني – ١٣٤/١٨ و١٣٥، ط/ بولاق.

(٥)أي: حتى صرت مُلِمًّا بخفايا المهالك، وكيف تُؤَدي إلى الموت

(٦)أُسْدِفَ: أظلم بصره من شدة الجوع.

(٧)الأغاني، ١٨٢/٢١، ت/ عبد الكريم الغرباوي ومحمود غنيم، ط/ الهيئة المصرية.

(٨)أم عامر: كُنْية الضبع، وأبشري أم عامر: كناية عن إلقاء جثته في الخلاء لتأكلها (أم عامر).

(٩)إذا احتملت رأسي: الضمير في "احتملَتْ": يجوز أن يعود على "أم عامر"، أو على القبيلة التي القبيلة التي قتلته، وفي الرأسي أكثري: كناية عن فطنته وسعة حيلته وشجاعته، والملتقي: المعركة، سائري: ما تبقى مني.

هؤلاء الشطار والعيارون[٢] جَسَّدوا "الصعلكة ": حَدَّدوا مفهومها، وشروطها، ومتطلباتها ونتائجها. وما الشعر الذي نظموه – وليس كلهم الشعراء، إلاَّ بعض بنود دستورهم في الحياة.

وقد تساعدنا المعاجم اللغوية والدراسات الأدبية على أن نقترب من دائرة مصطلح (الصعلكة)، مع أن معاني الكلمات اللغوية في المعاجم شيء، وهي في بيئتها الطبيعية شيء آخر، حيث تتحرك الكلمة وتتنفس، وتتكاثر وتتوسع.

في لسان العرب: "الصعلوك" هو الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري، ولا اعتمادٌ، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك، وصعاليك العرب: ذؤبانها، وكان عروة بن الورد يسمى "عروة الصعاليك" لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة، فيرزقهم مما يغنم[٣]، وهو الضمور والانجراد"[٤] ، فيفكر في غيره وليس في نفسه، يفكر فيمن لم يفتقر ولم يهزل، لأنه في غنىً فاحش، فيقرر أن يجرده من غناه– لأنه حق مشروع للفقير والمسكين– إذا تصعلك، وعلى الجاني تدور الدوائر.

منطق أعوج، أهوج، أظلم من الليل الأسود، فبدلاً من أن يستقيم الصعلوك، يسرق، ويقتل، مطبقاً مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" ووسيلة الصعلوك إغناء الفقير، من دم الغني.

=

(١)هنالك لا أرجو: جواب الشرط، لـ "إذا احتملت"، هنالك أي: حينئذ. أي: حين تقطع قبيلته رأسه، أو تقطعها أم عامر، سمير الليالي: طول الليالي، مُبْسِلاً: مرهوناً بآثامي وجرائمي.

(٢)الشاطر: من أعيا أهله خبثاً، وهو الذي عَصَا أباه، أو ولي أمره، واللص الشاطر الذكي الذي يستخدم الحيلة في موضع الحيلة، والقوة بلا عمل ينفع، ويخلّي بين نفسه وهواها. انظر: حكايات الشطار والعيارين، للدكتور محمد رجب النجار، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.

(٣)لسان العرب – مادة "ص ع ل ك".

(٤)الدكتور يوسف خليف – الشعراء الصعاليك، ص٢٢، ط/ دار المعارف الثانية، ١٩٧٨م.

نعم، المتأمل في أخبارهم وأشعارهم يلفت نظره شعورهم الحاد بالفقر، وإحساسهم المرير بوقعه على أنفسهم، وشكواهم الصارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية، وعدم تقدير المجتمع لهم، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة، كما يأخذها سائر أفراد مجتمعهم، يريدون الوقوف مع غيرهم على قدم المساواة في معترك الحياة، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم، وحرمهم من العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه، إنهم جردوهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم، ممن توافرت لهم هذه الوسائل.

وكل هذا لا يجعلنا نتوافق معهم، بل، نتعاطف معهم، ونندهش من شجاعتهم، وحرصهم على الوفاء بمبادئهم، والتزامهم بانقاذ الملهوف والجائع والمحروم، والضعيف والمأزوم، ولا نقول: لو كانوا في أحضان المجتمع الجاهلي لكانوا أفضل، لأن هذا المجتمع كان مجتمعاً طارداً، وليس حاضنا، شحيحاً وليس معطاءً، ظالماً وليس عادلاً.

أما عن تشكيلاتهم، فيقول الدكتور شوقي ضيف: وممكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخُلَعاء الشُذَّاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل: حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القينى، ومجموعة من أبناء الجنسيات السود ممن نبذهم آباؤهم، ولم يُلحقوا بهم بعار ولادتهم كالسُّلَيك بن سلكة، وتأبطَّ شراً، والشَّنْفرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فَسُمُّوا، هم وأضرابهم باسم "أغربة العرب" ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة، احترافاً، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبْسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتَيْ: هذيْل، وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي[1].

(١)العصر الجاهلي، ٣٧٥، ط/ دار المعارف.

إذاً، فنحن لسنا أمام بعض شُذَّاذ الناس، الذين تنقَّلُوا عبر الجزيرة العربية، يغيرون، وينهبون، ثم يوزعون الغنائم، بل، أمام تشكيلات عصابية لا يمكن حصر عددها. ولا أماكن وجودها، ولا عدد غاراتها، ولا عدد من أعانت من الناس، أو قتلت من الأغنياء، أو عدد من انضم إليهم من الشذاذ. إنهم جميعاً مدينون للشعر الذي خَلَّدهم في كتب الأدب والتاريخ.

وإذا كانت هذه المقدمة إطلالة سريعة على مفهوم الصعلكة، وأحوال الصعاليك، ولها تكملة فيما بعد، فيبقى لنا أن نقف أمام مصطلح "البطولة" وعلاقته بالصعلكة.

أقول، إن البطولة هي العمل المتجاوز الحد المعتاد من الآخرين، في حرب أو سِلْم، البطولة: هي التفرد بميزة تميز شخصاً مَّا عن قرائنه الذين يشتركون معه في صفاتها ذاتها، سواء في القوة البدنية، أو الذهنية، أو في المعارك الحربية، أو الألعاب الرياضية، تلك التي تتطلب طاقات خاصة، يظل البطل في عمل شاق من أجل الوصول إليها، ويندرج تحت هذا التوصيف رجال العلم الأفذاذ ورجال الفن والأدب والفلسفة، هؤلاء الذين يصعب تكرار وجودهم، ولا ننسى أصحاب العاهات المزمنة الذين حققوا نتائج علمية أو أدبية، أو رياضية يعجز الكثير من الأصحاء أن يحققوها.

فأين نضع الصعاليك في هذه المنظومة البطولية وبأي مقياس:

الصعلوك بطلٌ، حين تصدى لمجتمع بأسره وخرج عن طوعه، وبطلٌ حين تصدى للصحراء يعيش أهوالها، وبطلٌ حين آمن بفكرته، وقدم حياته ثمناً لها. وبطلٌ حين أطعم وهو الجوعان، وبطلٌ حين حارب وهو الواثق أنه لا محالة مقتول، وإن لم يُقتل سيؤسر، الصعلوك بطلٌ حين رفض ظلم القبيلة، وحين عاقب الغِنَى، والبَطَر والقهر من حفنة من الأغنياء البخلاء الجبناء.

الصعلوك بَطَلٌ من صنع الحياة الجاهلية، لأنه في الحياة الأموية كانت له ظروف أخرى ومبررات أخرى، وكذا في الحياة العباسية.

الحياة الجاهلية منظومة، شبكة مُعقدة قوامها الإنسان والحيوان والصحراء والطبيعة، والقوانين الجائرة منها والعادلة، فكيف كان ذلك؟

إذا كانت الحياة الجاهلية قد أعدت هذه الجماعة المارقة من الصعاليك، فلا نَنْسَ أنهم في أنفسهم كانوا يملكون من الصفات الجسدية والنفسية والذهنية التي أهَّلتْهم لذلك. كانوا جميعاً فقراء، حتى عروة بن الورد "سيد الصعاليك". كان صعلوكاً فقيراً مثلهم[١]، ذوي عزيمة صادقة لايثنيهم شيء عن هدفهم إلاّ الموت. وهذا تأبط شراً، يقول:

وكنـــت إذا مـــا هممـــت اعتزمـــت وأَحْـــرَ إذا قلـــت أن أفعـــلا[٢]

يأنفون من القيام بتلك الأعمال التي يصح أن نطلق عليها "الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي"[٣]، وهي تلك التي كان يقوم بها أشباههم من الفقراء، ويشرح لنا تأبط شراً ضعة هذا العمل قائلاً:

ولســـت بتِرْعـــيٍّ طويـــل عشـــاؤه يؤنفهـــا مســـتأنف النبـــت مُبْهِـــلُ[٤]

الصعاليك كرماء، حتى ليضرب بهم المثل في الكرم، قالوا: كل صعلوك جواد[٥]، شجعان جُرَأاء أقوياء الأجساد، تفيض أخبارهم، وأشعارهم بأحاديث عن هذه القوة

---

(١)التبريزي– شرح ديوان الحماسة– ١٧٧/١، تحقيق محمد عبد القادر سعيد، الطبعة المصورة، دار القلم، بيروت، لبنان.

(٢)ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٢٠، ت/ أحمد محمد شاكر، ط/ الثالثة، ١٩٧٧، وأَحْرِ: يجب عليَّ.

(٣)الدكتور/ يوسف خليف، ٣٦.

(٤)لسان العرب– مادة "رعي" والترعي: الذي صناعته رعى الإبل، أو من صناعة آبائه، يؤنفها، أي: يتتبع بها أنف المرعى، أي: التي لم ترْع، وأبْهَل إبله: تركها مهملة.

(٥)الميداني، مجمع الأمثال، ٩/٢، ط/ ١٢٨٤هـ، ١٨٦٦م.

إذا خشعت نفس الجبان وخيمت

فَلِي حيث يخشى أن يجاوز مِخشفُ[1].

لقد كان هؤلاء الصعاليك فزعاً قاتلاً ورُعباً قائماً في المجتمع الجاهلي، حتى لنقرأ أن فارساً من فرسانهم المعدودين، وهو عمرو بن معديكرب، يقول: لو سرتُ بظعينة وحدى على مياه مَعَدٍّ كلها ما خفتُ أن أغْلب عليها ما لم يلقانى حُرَّاها، أو عبداها، أما الحُران فعامر بن الطفيل، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وأما العبدان: أسود بني عبس (يعني: عنترة)، والسُّلَيْك بن سلكة، وكلهم قد لقيت، فأما عامر بن الطفيل ...، وأما عتيبة ...، وأما عنترة...، وأما السُّليك فبعيد الغارة كالليث الضاري[2].

وكانوا عدائين يمتلكون سرعة خارقة للعادة، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم "العدَّائين"[3] ، أو "الرَّجَليين" أو "الرُجَيْلاء"[4]، وضربوا بهم المثل في العدو، فقالوا: أعدى من الشنفري"[5]، وأعدى من السُّلَيْك[6] وتصفهم مصادر الأدب بأنهم "أشد الناس الناس عدواً"[7]، وكأنهم صورة من عَدَّائى الماراثون في عصرنا الحديث.

---

(١)الأغاني– ١٢١/٢١، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ت/ عبد الكريم الغرباوي ومحمود غنيم، والمخشف: الجرىء، على هول الليل، وهو هنا صفة للقلب، والبيت في طبعة الهيئة به خلاف في الألفاظ عن طبعة لَيْدِن.

(٢)ابن الأنباري شرح المفضليات، ٧٠٤، ٧٠٥، ط/ بيروت ١٩٢٠م.

(٣)الأغاني –١٣٣/١٨، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٤)تاج العروس: مادة "رَجَل"، الرجيلاء كغميصاء، والرجَليون محركة: قوم كانو يعدون.

(٥)الميداني – مجمع الأمثال – ٤٣٠/١، ط/ بولاق ١٢٨٤ هـ، ١٨٦٦م.

(٦)الميداني، ٤٣١/١.

(٧)الأغاني، ١٣٤/١٨، ط/ بولاق.

وهكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأشداء خطتهم من أجل الحياة أولاً، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذي لا يعترف بهم وتتلخص خطتهم في "الغزو والإغارة للسلب والنهب".

إنهم صعاليك لمجتمع جاهلي، مجتمع كانت له علاقاته بالطبيعة التي حاصرته: أرض شاسعة، ورمال كأمواج البحر ممتدة ، وشمس تشوي الوجوه، مع أمطار في مواسمها، ووديان وعيون، وحياة قاسية هنا، رغدة هناك، وطبقية، وقوافل، وأخذ بالثأر، وإغارة، وقتل، وتقاليد صارمة، ورئيس قبيلة صاحب الكلمة العليا، ومجلس رءوس القبيلة الذي يحل المشكلات، ويقرر الدِّيات، ويعاقب ويكافئ و يظل ابن القبيلة ناعماً بحمايتها، قلقاً من غضبها. إنها حياة لها طبيعتها الخاصة الذي شكلتها الطبيعةالصحراوية.

ولا أريد أن أنساق وراء الحديث المستفيض الذي تفضل علماؤنا الجغرافيون والمؤرخون والأدباء وفصَّلوا القول فيه، إنما سأكتفي منهم بشذرات تقول صراحة: لا حياة جاهلية بلا صعاليك، ولا صعاليك بعيداً عن حياة جاهلية، هي أفرزتهم، وهم نتاج ظروفها.

وأقصد بالظروف كثرة الجبال الجُرْد المختلفة الألوان والتي فيها الحِرار[1]، والصحارى الرملية المترامية الأطراف، التي تتخللها الجبال، والوديان التى هيأتها السيول، والأرض القريبة الخصبة التربة الصالحة لإقامة الأهالي الذين يعتمدون على ما تنبته، وما يجدونه فيها من ماء يشربون منه، ومرعى يسيمون فيه أنعامهم، وأما بعد هذه الوديان فهو قفر غير صالح للسكنى، وأعظم الوديان ثمَّ، "وادي الدهناء" الذي يعود على العرب بالخير إذا أخصب، غير أن الانتفاع بجميع مائة غير ميسور فكثير منه يفيض في الرمال.

---

(١)الحرار، جمع حَرَّة: أرض بركانية ذات حجارة سُود نِخرة، كأنه أحرقت بالنار.

وقد يتأخر المطر فتشتد الحال بالقبائل الكثيرة التي تعتمد عليه، لذلك قلَّ أن يستقر العرب في مكان واحد فهم يرتحلون إلى حيث الماء.

وليست شبه الجزيرة صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، كما كانوا يقولون – ففي شبه الجزيرة عدا صحراء "النفود"، و"الرَّبع الخالي" أراضٍ زراعية ودارات[1]، وهي واحات خصبة يمكن السُكنى فيها. وقد أَلبست طبيعة هذه البلاد أهلها النشاط والخفة، وخصوصاً البدو منهم، وهم لا يعتمدون كثيراً على الزراعة ولاسيما إذا فُقد الماء، وجُلُّ اعتمادهم على تربية الأنعام، وفي مقدمتها الإبل، التي يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويلبسون أوبارها، وتنقلهم من مكان إلى مكان، لا يصلون إليه إلاَّ بشق الأنفس.

ذلك كان قبل أن تولد المملكة العربية السعودية الحديثة سنة ١٩٣٢م.

الشعر والصعلكة والبطولة.

الشعر إبداع، والصعلكة مبدأ، والبطولة حصاد، والإبداع فكر وخيال ووجدان، الصعلكة ظلم وعدل ودماء، والبطولة قدرة وثبات وفداء، فكيف يجتمع هذا الخليط في شخص واحد؟

سنأخذ من الشعر الفكرة ومن الصعلكة المنهج، ومن البطولة التميز، وبذلك يكون لدينا صعلوك فنان، له قضية يدافع عنها، ويدفع حياته ثمناً لها، إنه بطل يسفك الدماء، أما وجدانه فيهتز بأرق الألحان، وما علينا إلاّ أن نستمع إلى ترنيماته في إصراره وشجاعته، وفي شيطنته وسماحته، وفي توفيقه بين المتناقضات –حتى استطاع أن يحتل مكاناً بارزاً بين صفحات الأدب والتاريخ – إنه الصعلوك البطل.

---

(١)الهمداني– صفة جزيرة العرب– ١/٥١، ٦٧، وغيرهما، ط/ ليدن ١٨٨٤م.

في الأشعار التي تركها لنا الصعاليك ملامح مشتركة، تختلف فيما بينها في الدرجة من صعلوك لآخر، لكنها موجودة تعطينا مفهوم البطولة عند هؤلاء المارقين. إنهم جميعاً متمردون ثائرون، كرماء، يتوقعون نهايتهم في أي لحظة.

التمرد:

التمرد هو رفض الواقع القائم، ومحاولة تغييره بطرق مشروعة أو غير مشروعة، التمرد: ضرورة من ضرورات مكونات البطولة، فالبطل غير مستكين، غير مستسلم، قوي الجسد، قوي الإرادة، يعرف ماذا يريد، وليس كل اللصوص صعاليك، ولا كل الصعاليك أبطال. فماذا نقول عن النشناش النهشلي الذي كان من لصوص العرب من بني تميم، ويعترض القوافل في شذاذ من العرب[١]، وعَبْدة بن الطبيب الذي كان من لصوص الرِّباب[٢]، وقُراد بنن العيار أحد شياطين العرب[٣]، وجُرَيْبة بن الاشْيم الفقعسي أحد شياطين بني أسد وشعرائها في الجاهلية[٤]، وأبي منازل فرعان بن الأعرف اللص الشاعر المخضوم[٥]، وغيرهم من اللصوص الجاهليين والمخضرمين[٦].

أقول: إن هؤلاء شياطين يسرقون لأنفسهم، يسرقون الفقير قبل الغني، ويقتلون من أجل إضافة تضخم ثرائهم المنهوب، غلاظ القلوب، لا يرحمون أحداً، ولو كان بعضهم من الشعراء، أما الصعاليك فهم شياطين يسرقون لغيرهم، يسرقون الغني البخيل

---

(١)الأصمعيات– ١١٨، ت/ أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط/ دار المعارف، الثانية، ١٩٦٤م.

(٢)المفضليات – ١٣٤، ت/ أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط/ دار المعارف، ١٩٤٢، والشعر والشعراء، ٧٣١/٢، ت/ أحمد شاكر، سنة ١٩٤٢م.

(٣)المرزوقي، شرح الحماسة، ٦٦٩/٢.

(٤)المرزوقي، شرح الحماسة، ٧٧٣/٣.

(٥)المرزوقي، شرح الحماسة، ١٤٤٥/٣.

(٦)انظر – ديوان الهُذَليين، ط/ دار الكتب، وحكايات الشُطار والعيارين، للدكتور محمد رجب النجار، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، والشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف، ط/ دار المعارف.

من أجل البائس والمعترِّ، ويقتلون من يتصدى لهم ليمنعهم من أداء الواجب الذي فرضوه على أنفسهم، في الكثير منهم رقة قلوب الشعراء، لكن كلهم عناد وقوة، وإصرار وبأس شديد.

إنهم متمردون، فُرضت عليهم أوضاعٌ اجتماعية ليست من صنعهم، وعادات متحجرة، وتقاليد بالية، وطبيعة سوداء، وعوز اقتصادى وطبيعية جافة، ثم أضيف للصعاليك ظروف نفسية تربوية أكملت سيمفونية الحرمان، والجوع والذل فرسموا لأنفسهم حياة من صنع أيديهم، تُرضى كبرياءهم، وتُشفي غليلهم.

فالسُّلَيك بن سُلكة الصعلوك يحاسب على أن أمة سُلكة سوداء، وكانت العرب في الجاهلية، إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبدوه[1]، والشنفرى تأسره بنو شبابه بن فَهْم، ويظل فيهم حتى تأسر بنو سلامان بن مفرِّج رجلاً من فَهْم، فتفديه بنو شبابة بالشنفرى الأسير، ويشتريه أحد بني سلامان، ويتخذه ولداً، وبعد حين يكتشف الشنفرى مأساة حياته، وسواد الهوان الذى خَيم على ذاته[2].إنه يعلم أنه ابن أَمَة، ولكنه موقن أن آباءه من خيرة الناس، يقول للفتاة السلامية التي نزعت عن عينيه الغشاوة، وأعلمته أنه عبد بن عبدة:

ألا ليت شعري- والتَّلَهُّفُ ضِلة- بما ضربت كفُّ الفتاة هجينها[3]

ولو علمت قُعسوس أنساب والدي ووالدها ظَلَّت تقاصَرُ دونها[4]

أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها[1]

---

(١)ابن قتيبة- الشعر والشعراء- ٣٧٢/١، ت/ أحمد محمد شاكر، الثالثة، ١٩٧٧م.

(٢)الأغاني – ١٧٩/٢١.

(٣)جملة "والتلهُّف ضَلَّة "جملة اعتراضية، بمعنى أنه لا يريد أن يتسرع في الحكم على هذه الفتاة القاسية، وبما: بماذا. الهجين: العبد بن العبدة.

(٤)قُعسوس: يقولون إنها اسم هذه الفتاة السّلامية، وظلت تقاصر: أي ظل كبرياؤها يتقاصر.

إنه يحاول أن يزين الوقائع وهو يعلم أنها كالحة.

بنو شبابه يأسرونه، ثم يبيعونه لبني سلامان مقابل رجل منهم، ثم يشتريه رجل من بني سلامان، ثم تصفعه الفتاة السُلامية بالحقيقة المُرّة. فيتمرد على القبيلة التي أسرته، والقبيلة التي استعبدته.

يقول لبني سلامان:

وإنـــي لأهـــوىَ أن أُلُـــفَّ عجـــاجتي على ذي كساءٍ من سلامان أو بُـرْد[٢]

وأصـــبِحَ بالعَضْـــداء أبغـــى ســـراتهم وأسْـلُكَ خَـلاً بـين أربـاع والسَـرْد[٣]

ويغير على الأزد على رجليه، ويقتل منهم رجلاً، قتل له أباه أو أخاه، فيقول:

قتلـــت حِزامـــاً مهـــدِياً بملبِّـــد ببطن مِنيً وسْط الحجيج المصوِّت[٤]

أما عروة بن الورد فقد حاصره التشاؤم من أبيه، وضِعَةُ قبيلة أمّه، وعروة يمتد نسبه إلى عبس، وكانت قبيلته تتشاءم من أبيه، فهو الذي أوقع الحرب بين عبْس وفزارة[٥]، وأمه من

=

(١) يبدو أن "الحجر الموضع الذي نشأ فيه، ويصف أمه بأنها ابنة الأحرار في عزتها وأنفتها، الأغاني– ١٧٩/٢١.

(٢) لف العجاجة: كناية عن الغارة، والعجاجة: غبار الحرب، ونحوها، ويعني بـ "على ذي كساء من سلامان أو" بُرْد" الكناية عن الشمول وعدم ترك أحدٍ يفلت منه.

(٣) العضداءُ وأرباع والسرد: أسماء أماكن، والسراة: الأشراف، والخَل: الطريق ينفذ في الرمل.

(٤) مهدياً: مقدماً الهدْى في الحج، الملبد: مكان التلبيد، وكان من عاداتهم في الحج أن يدهنوا شعورهم بشيء من الصمغ لتتلبد، المصوّت: الذي يجهر بالدعاء ونحوه.وانظر المفضليات– ١١١،الأبيات من ٢٨–٣١.

(٥) الأغاني– ٨٨/٣.

قبيلة نهد، غير ذات القيمة الاجتماعية الرفيعة في المجتمع الجاهلي، وكان عروة دائم السخط على هذه الصلة التي بين أبيه العبسي وأمه النهدية[١].

يقول في العار الذي لحقه من كون أخواله من بني نهد:

وما بي من عار إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نُسِبوا نَهْدُ[٢]

وكان يهجوهم مُرَّ الهجاء[٣].

بالإضافة إلى تجارب حب فاشلة من زوجته الكنانية[٤]، وحبيبتيه: هند[٥]، وأم وهب[٦]، وكل منهن لها معه قصة. وما من صعلوك إلاَّ ووراؤه قصة حزينة وعذاب، وهوان. إن دارس أدب الصعاليك لَيُعاني من قلة النصوص التي تعينه على درس هذه الشريحة العربية من المجتمع الجاهلي دراسة مستوفاة، حتى الروايات المعدودة التي في مصادرنا التراثية، قد نالها قدر من مبالغات الرواة، لإثارة خيال المستمع. وهنا يبرز شعر الصعاليك – على قِلَّته – مستنداً أدق من كثير من هذه الروايات. ولو أن حياة الصعاليك مستقرة، لا تقوم على الكر والفر، والظهور والتخفي– لكان لدينا حصاد لا بأس به من أشعارهم.

العوامل الدافعة

التمرد هو الخروج على الرأي السائد، وعدم الاعتراف به، ومحاربته، إما باللسان، وإما باليد، أو بكليهما: بالتعبير عن الرفض، أو بحمل السلاح، أو بكليهما.

---

(١)عروة بن الورد– الديوان– ١٥٧، ١٥٨، شرح ابن السكيت، ط/ الجزائر، ١٩٢٦م.
(٢)عروة بن الورد – الديوان ١٥٧.
(٣)عروة بن الورد – الديوان ١٥٧، ١٥٨.
(٤)الشعر والشعراء – ٢–٦٨١.
(٥)الموشح – ١٢٢، تحقيق على محمد البجاوي، ط/ دار نهضة مصر، ١٩٥٦م.
(٦)الموشح – ١٢٩.

ومن الصعاليك من عاش مسكيناً ذليلاً، وكان متمرداً تمرداً سلبياً، ومنهم من أعلن عن رأيه في المجالس والمنتديات، بدون سلاح ومنهم من تمرد بلسانه، وتمرد بسلاحه، بل، تمرد بسلوكه وهجر موطن الذل والمهانة، وهؤلاء هم الصعاليك أصحاب القضية، المدافعون عنها، الذين قدموا أرواحهم دليلاً على قناعتهم بها .

لقد كانت الطبقية الجاهلية، وسوء توزيع الثروات والظلم الواقع على الضعفاء، وهوان منزلة المرأة، والتقاليد المتحجرة...، كلها كانت العامل الرئيس في تمرد طائفة الصعاليك. ولكن هذه كلها لا تكفي، بدون الاستعداد البدني، والتصميم، والإرادة الحديدية، والقلب لجسور، والمهارة في استخدام السلاح، والجرأة، والصبر على الجوع والعطش، والسرعة في الكر، والسرعة في الفر، وتوقع الشر، واليقظة، والحيطة. وعين لا تغفل حتى ولو نامت.

والمصادر التراثية تصف الصعاليك بأنهم "العداءون"[١] وفي الشعر الشعراء لابن قتيبة، أن تأبط شراً "كان شاعراً بئيساً، يغزو على رجليه وحده[٢] وأن سليك بن سلكة "أحد أغربة العرب"[٣] وهجنائهم[٤]، وصعاليكم، ورَجيلائهم[٥]، وكان له بأس ونجدة، وكان أَدَلَّ الناس بالأرض، وأجودهم عدواً على رجليه، وكان لا تعلق به الخيل[٦]، الخيل[٦]، وفي المثل "أعدى من الشنفري"[٧] ، و"أعدى من السُّليك"[٨].

---

(١)انظر على سبيل المثال: الأغاني – ١٣٣/١٨و ٢١، والبغدادي – خزانة الأدب – ١٧/٢ (بولاق).
(٢)ابن قتيبة– ٣١٨/١.
(٣)أغربة العرب: السود منهم، وشبهوهم بالغراب في سواده.
(٤)الهجين: المخلَّط، الأب عربي والأم غير عربية.
(٥)الرجيلاء: المشهورون بالمهارة في العدو.
(٦)ابن قتيبة– ٣٧٢/١.
(٧)الميداني– مجمع الأمثال– ٤٣٠/١ (بولاق/ ١٣٨٤هـ).
(٨)الميداني– مجمع الأمثال – ٤٣١/١.

وتأبط شراً يقول مفتخراً بسرعته التي أنجته من أعدائه، وما أرسلوه خلفه من خيل سريع:

ليلــةَ صــاحوا وأغــروا بــي ســراعهم بـالعَيكتين لـدى معـدى بـن بَـرَّاقِ[1]

كأنمــا حثحثــوا حُصَّــا قوادمــه		أو أَمَ خِشـف بـذي شَـثً وطُبَّـاق[2]
لا شيء أسرع مني ليس ذا عَـذَرٍ		وذا جنــاح بجنــب الزَّبْـد خَفّــاق[3]
حتـى نجـوتُ ولمـا ينزعـوا سَـلَبي		بوالــهٍ مــن قبــيض الشَّــد غَيــداق[4]

ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هي التي أنجته من موت محقق، فلولاها لآمت امرأته، وتيتم ابنه[5]

(١) العيكتان: موضع، مَعْدى: مصدر ميمي، أو اسم مكان من عدا يعدو، ابن براق هو عمرو بن براق.

(٢) حثحثوا: حركوا من (الحثِّ)، القوادم: ما ولي الرأس من ريش الجناح، والحُص: جمع أُحْص، وهو ما تناثر ريشه وتكسَّر، ويشير بذلك الى الظليم، وهو ذكر النعام، الخِشف، ولد الظبية. والشث و الطباق، نبتان طيبا المرعى يضمران راعييهما، ويشدان لحمهما، أي كأنما حركوا بحركتهم إياي ظليماً أو ظبياً، والنعامب والظباء: مضرب المثل في سرعة العدو.

الطباق، نبتان طيبا المرعى يضمران راعييهما، ويشدان لحمهما، أي كأنما حركوا بحركتهم إياي ظليماً أو ظبياً، والنعامب والظباء: مضرب المثل في سرعة العدو.

(٣) العَذرُ: جمع عُذرة، وهي ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس، والزَّبد: الشمراخ الأعلى من الجبل، يقول: لا شيء أسرع مني إلاَّ الفرس، وإلاَّ الطائر الجارح الذي يأوي إلى الجبل: إذ هو أسرع طيراناً من جارح السهل، وليس بمعنى: إلاّ.

(٤) السَّلب: ما يسلب في الحرب، الواله: الذاهب العقل، الشَّدِّ القبيض: الجري السريع، الغيداق: الكبير الواسع من الغدق وهو المطر الكثير، يريد: أنه نجا من جبيلة مسرعاً كالواله، ويكون قد جرد نفسه شخصا كاد يذهب عقله من سرعة الهرب، والطلب وراءه، المفضليات– ٢٨، ت/ أحمد شاكر.

(٥) ديوان الهذليين ١٤٨/٢ والأغاني – ٥٦/٢١، ٥٧.

ويصل الأمر بحاجز الأزدى إلى أن يُفَدِّئُ رجليه بأمه وخالته، فماذا أفاد منهما سوى هذا الهوان الذي غطاه من جراء لونه الأسود، أما رجلاه فهما كل شيء في حياته[١].

والصعلوك فقير، فقير لأنه عبد أسود، وفقير لأنه كريم ما في يده للمسكين، وفقير لأنه يعدْو في صحراء ضنينة قَّلمَا ترحم إنساناً أو حيواناً، وليس إلاَّ الموت جوعاً أوالموت عطشاً. وهذا الفقر ليس حِكراً على الصعاليك، بل قد يغزو بقاعاً عديدة بقسوة، يدفع بهم أن يغيروا على جيرانهم الموسرين من أجل الحصول على الطعام[٢] بل إن كثيراً من الصراع الداخلي بين القبائل، إنما يرجع – من بعض جوانبه – إلى الفقر والجوع[٣].

والصعلوك يجابه الجوع بالصبر، والإرادة الحديدية، وإذا ضاقت به السبل وأشرف على الهلاك جوعاً جمع أصحابه وانطلقوا إلى الأغنياء الذين كادوا يموتون من التخمة.

وفي أخبار عروة أن ناساً أجدبوا "في سنة أصابتهم، فأهلكت أموالهم، وأصابهم جوع شديد وبؤس ....، فأتوا عروة يستنجدون به فخرج، ليغزو بهم ويصيب معاشاً[٤]. وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليك حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم[٥]. ويذكر الرواة أن أبا خراش الهذلي أقفر من الزاد أياماً[٦]. ويحدثنا السليك بن بن سلكة في بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع في شهور الصيف، حتى ليشرف على الموت والهلاك، يقول:

---

(١)الأغاني – ٥٢/١٢ (بولاق)، وحاجز من "أغربة العرب" انظر "تاج العروس مادة: غَرَبَ.
(٢)ابن دريد – الاشتقاق – ٢٤٦، ط/ جوتنجن ١٨٥٤م.
(٣)انظر حديث الأصمعي في الأغاني – ٣٩/١٤.
(٤)انظر على سبيل المثال، شرح ديوانه لابن السكيت، ١٠٣، ١٠٤ والسَّنَةُ: القحط
(٥)الأغاني – ٢١٣/٢١، ت/ العزباوي ومحمود غنيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.. ١٩٧٣م..
(٦)الأغاني ١٣٤/١٨، ١٣٥، ط/ بولاق..

ومانِلْتُهـــا حتـــى تصـــعلكتُ حقبـــة وكـــدت لأســـباب المنيـــة أعـــرفُ[1]

وحتـى رأيـت الجـوع بالصـيف ضـرني إذا قمـت تغشـاني ظـلال فأُسْـدِفُ[2]

ويتحدث الأعلم الهذلي عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى ما يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وذكـــــرتُ أهلـــــيَ بـــــالعراء وحاجـــة الشُّـــعث التَّوالـــبِ[3]

المُصـــــــرمين مـــــن الـــــتلا د اللامحـــين إلـــى الأقـــارب[4]

بل إن الجوع ليشتد بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من نفد صبره، أن هَلُمُّوا إلى الغزو، فَلَلْموت خير من حياة الجوع والهزال[5].

والصعلوك شجاع بفطرته، مستهين بالحياة، يحمل رأسه بين كفيه، ويعيش يومه، ولا يعلم شيئاً عن غده، فهو ميت يجري على قدمين.

فتأبط شراً يحكي عن نفسه:

وكنتُ إذا ما هَمَمْتُ اعتزمتُ

وأحْرَ إذا قلتُ أن أفعلا[6]

أما الشنفرى فيعرف نفسه:

---

(١)أسباب المنية أعرف: حتى صرت مُلِماً بخفايا المهالك، وكيف تؤدي إلى الموت.
(٢)أَسْدَف: أظلم بصره من شدة الجوع.
(٣)شرح أشعار الهذليين/ السكري– ٥٨/١، ط/ لندن، ١٨٥٤م. والتوالب: الجِحاش، مجاز لأنبائه الصغار.
(٤)المصرم: الفقير.
(٥)ديوانه – ١٠٦.
(٦)ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ٣٢٠/١.

وإني لحُلو إن أُريدَتْ حلاوتي

ومرٌّ إذا نفسُ العَزوفِ استمرت[١]

أبيٌّ لما آبى سريع مباءتي

إلى كل نفس تنتحى في مسرَّتي[٢]

وأما أبو خراش فيعيب على امرأته عزوفها عنه إلى رجل موسر الحال يقول لها:

وإني لأثوى الجوع حتى يملَّني

فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي[٣]

وأغتبق الماء القَراح فأكتفى

إذا الزاد أمسي للمزَلَّج ذا طعم[٤]

أَرُدُّ شجاع البطن قد تعلمينه

وأوثر غيري من عيالك بالطُّعْم[٥]

مخافة أن أحيا برَغْمٍ وذلةٍ

ولَلْموت خير من حياة على رُغمِ[٦]

---

(١)العزوف: المنصرف عن الشيء، واستمرت: استفعلت من المرارة.
(٢)المفضليات – ١١٢.
(٣)لأثوي الجوع: مجاز لمعاناة الجوع، وجرمي: جسمي.
(٤)الغبوق: ما يُشرب بالعشي خمراً أو لبنا. القراح: الصافي، المزلَّج: مَن لا خير فيه، ولاغناء عنده، ولاغناء عنده، ويقصد بذلك الأغنياء البخلاء.
(٥)شجاع البطن: مجاز للجوع القاسي.
(٦)الرغم: القهر، والديوان – ١٢٦/٢، ط/ دار الكتب.

ويتوزع الصعاليك على الطرق مستخفين في الجبال، ويتلبثون بها طويلاً حتى إذا اقتربت القافلة باغتوها، ثم أسرعوا في شعاب الجبل لا يقدر على إمساكهم أحد، وقد يتربصون فوق المراقب. يقول ذو الكلب الهذلي:

ومرقبـــة يحـــارُ الطـــرف فيهـــا إلـــى شـــماء مشـــرفة القـــذال[1]

أقمـــت بِرَيـــدها يومـــاً طـــويلا ولـــم أشـــرف بهـــا مثـــل الخيـــال[2]

ومقعـــد كَربـــة قـــد كنـــت فيهـــا مكـــان الإصـــبعين مـــن القبـــال[3]

وعروة بن الورد يخاطب امرأته بأنه قد اختار طريقه، فلا رجعة له عن الصعلكة، يقول:

أقِلِيِّ عليَّ اللوم يا ابنة منذر

ونامي، فإن لم تشتهي النوم فاسهري

ذريني ونفسيَ، أُمَّ حسَّان إنني

بها قبل أن لا أملك البيع مشتري[4]

أحاديث تبقى والغني غير خالد

إذا هو أمسى هامة تحت صَيِّري[1]

---

(١)القذال: الرأس، والمرقبة: الطريق الممتد بين جبلين يصعب ارتقاؤه، ويسهل على المتخفِّي فيه أن يرصد القوافل المقبلة.

(٢)الريد: الحرف، أو الحافة، وأشرف: أي أقيم قامتي فيراني الساري، وكأنني خيال منبطح.

(٣)الكُربة: موضع، القبال: سَيْر النعل يكون بين إصبعين من القدم. كناية بالمجاز عن توسطه هذا الموضع والتصاقه به – ديوان الهذليين – ٣/١١٩.

(٤)أم حسان: كنية امرأته سلمى، البيع ههنا: الشراء، يريد أن تدعه زوجته يحقق مالاً ومجداً وذكرى في وذكرى في حياته، قبل أن يحل به الموت..

تجاوبُ أحجارَ الكناسِ وتشتكي

إلى كل معروف تراه ومُنْكَرِ[٢]

ذريني أطوف في البلاد لعلني

أخليك أو أغنيك عن سوء مَحَضرِ[٣]

فإن فاز سهم للمنية لم أكن

جزوعاً، وهل عن ذاك من متأخَّرِ[٤]

وإن فاز سهمي كَفّكم عن مقاعِدٍ

لكم خلف أدبارِ البيوت ومنظرِ[٥]

والشواهد كثيرة، شجاعةٌ واستهانةٌ بالمخاطر، وصبر على الجوع والفاقة، والتغرب بين مسالك الجبال، وتوقع القتل في كل لحظة.

هذه العوامل الدافعة هي التي حَوَّلت الحلم إلى أمل، والأمل إلى عمل، والإنسان العادي المسكين إلى صعلوك من الشياطين، في نفسه ظلم، وفي يده سيف،

=

(١) أحاديث: بالرفع استئناف، والنصب مفعول، الهامة: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يثأر له أحد، تتحول إلى هامة، فتصيح عند قبره قائلة: اسقوني اسقوني، فاذا وجدت من يثأر له طارت، الصَّيِّر: القبر.

(٢) الكناس: موضع، يريد: أن الهامة إذا صوتت أجابتها أحجار الكناس بالصدى، فهي تصوت في كل حال، إذا رأت من تعرف ومن تنكر.

(٣) التخلية: الطلاق – مجاز للقتيل، وسوء المحضر: التسول.

(٤) جعل من سهام الميسر مثلاً له في مقارعته الموت، وفوز السهم: خروجه أولاً في المغامرة .

(٥) أدبار البيوت: كان الضيف إذا نزل بقوم نزل خلف البيوت حتى يُهيأ له مكانه، وكل هذا كناية عن الهوان وسوء الحال.

وفي عينيه إصرار، وفي قلبه قسوة على هؤلاء الذين أوردوه هذا المورد، ودفعوا به إلى الثأر والإجرام. وأخيراً قتلوه في معركة غير متكافئة لكنه فرض نفسه على المجتمع الجاهلي، وصار مصدر قلق وخوف وتوقع، وفرض نفسه على التراث الأدبى الجاهلي، فأوسعنا له مساحة من اهتمامنا وجهدنا، وألفنا فيه الكتب، إنه الصعلوك المتمرد البطل.

والصعلوك كريم، وكرم العربي صفة شخصية للفرد، وضرورة اجتماعية للجميع، ضرورة فرضتها صعوبة الحياة في هذه الصحراء القاحلة، ذات الأمطار الشحيحة وعيون الماء المتباعدة، والنباتات المتناثرة، لكن كان ثمة مدن مستقرة بجوار هذه الصحراء الموحشة مثل مكة والمدينة، والطائف، وبالرغم من ذلك، كانت السمة العامة حيال هذه الظروف القاسية، آنذاك، التكافل الاجتماعي، والتعاطف ومدُّ يد العون، ونجدة المكنوب، وإغاثة الملهوف، وإكرام الضيف، عادات راسخة لا تتزحزح، ومن ثم كان الكرم أبرز ما يمدح به الممدوح العربي، والشح أبرز ما يهجي به المهجو. وفي تراثنا الجاهلي قصص لا تنتهي عن كرم الكرماء وشح البخلاء.

وكيف يكون الصعلوك كريماً، وهو لا مال له يجود به، ولا مأوى مستقراً يستقبل فيه ضيفه، وليس بينه وبين عشيرته تكافل اجتماعي، أو مدّ يد العون أو نجدة الملهوف ؟نعم كان كريماً، ما يصل إليه من مال مسلوب يجود به على الصعاليك الفقراء، وإذا سعى إليه من يطمع في نجدته يعينه، وعروة بن الورد مثالٌ واضحٌ على كرم الصعلوك، ولماذا نذهب بعيداً وأمامنا صعلوك يضحي بحياته من أجل مبدئه، ويعيش يومه ولا يأمل أن تمتد حياته لغده: إن ما يصل إلى يده ليس له، بل لطائفة الصعاليك الذين معه، والمحتاجين الذين يلجئون إليه؟

فهذا تأبط شراً، ما يصل إلى يديه من أموال الإغارات ينفقه على غيره، ويبقى فقيراً كما كان, فتشكوه امرأته إلى نفسه، فيقول لها:

تقــول أهلكــت مــالاً لوقَبِعْــتَ بــه: مـن ثـوب صـدق ومـن بَـز وأعـلاق[1]

عــاذلتي إن بعــض اللــوم مْعَنَفَــةٌ وهــل متــاعٌ وإن أبقيتــه بــاق[2]

إنــي زعــيم لــئن لــم تتركــوا عَــذَلي أن يسـأل الحـيُّ عنـي أهـل آفـاق[3]

إن يســأل القــوم عنــى أهــل معرفــة فــلا يخبــرهم عــن ثابــتٍ لاق[1]

سّــدِّد خلالــك مــن مــالٍ تجمِّعــه حتى تلاقي الـذي كـل امـرئ لاق[4]

لتقــرَعِنَّ علــيَّ السِّــنَّ مــن نَــدَمٍ أن تـذكَّرْت يومـا بعـض أخلاقـي[5]

وأبو كبير الهذلي يحدثنا عن نفسه، أنه:

صــعب الكريهــة لا يُنَــال جَنَابــه ماضـي العزيـة كالحُسَـام المقصـل[6]

يُعطــي الصَــحاب إذا تكــون كريهــة وإذا هــم نزلــوا فمــأوى العُيــل[7]

تأبط يرثى الشنفري بعدما قتله بنو سلامان بن مفرِّج قائلاً:

فإنــك لــو لاقيتنــي بعــد مــا تــرى هــل يُلْقَــين مَــنْ غَيَّبَتْــه المقــابرَ[8]

---

(١)ثوب صدق: مقابل ثوب سوء، عَنَي به "الجيد"، والبز: الثياب أو السلاح. الأعلاق: كرائم الأموال.

(٢)زعيم: معتقد، وعجز البيت كناية عن هجرانه لهم ملياً.

(٣)لاق: من يلقونه ليخبرهم عن أمر"ثابت" هو اسم تأبط شراً.

(٤)سدد خلالك: الخلال جمع خَلَّة، وهي الفقر، وحتى تلاقي الذي كل امرئ لاق: مجاز للموت.

(٥)لتقرعن عليَّ السن من ندم: هذامثل لمن أضاع الفرصة على نفسه ثم ندم على فوتها– المفضليات المفضليات ص٣.

(٦)الكريهة: الشدة في الحرب، الحسام المقصل: الحسام القاطع.

(٧)الكريهة هنا، أي: الشدة والعوز. ونزلوا، أي: عنده، فسيجدون بيته مأوىً للفقراء، وعُيلً: جمع عائل جمع عائل وهو الفقير. الشعر والشعراء – ٦٧٦/٢..

(٨) جملة "هل يلقين من غَيَّبَتْه المقابر" اعتراض بين الشرط وجوابه.

لأ لفيتنـــي فـــي غـــارة أنتمـــي بهـــا إليـــك وإمـــا راجعـــاً أنـــا، ثـــائر[١]

وإن تـــك مأســـوراً وظَلْـــتَ مخيمـــاً وأبليـــت حتـــى مـــا يكيـــدك واتـــر[٢]

وحتى رماك الشيب في الرأس عانساً وخيـــرك مبســـوط وزادك حاضـــر[٣]

فلا يَبْعَدَنَّ الشَنْفَرى وسلاحه الحديد وشـــــدُّ خطْـــــوهِ متـــــواتر[٤]

إذ راع رَوْعُ المـــوت راع، وإن حمـــى حمـــى معـــه حَـــرٌّ كـــريم ومُصَـــابر[٥]

وأخبار كرم عروة بن الورد تكتظ بها كتب التراث. وهو القائل:

يـــريح علـــيَّ الليـــل أضـــيافَ مـــا جـــدٍ كـــريمٍ، ومـــالي ســـارحاً مـــال مُقْتِـــرِ[٦]

وهو القائل لصعلوك جمع مالاً واكتنزه بعيداً عن الفقراء:

إني امرؤ عافٍ إنائي شركةٌ

وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ[٧]

---

(١)لألفيتني (جواب الشرط): انتمى بها: انتسب إليها، ثائر: آخذ بالثأر.

(٢)يخاطب الشنفري وهو في قبره، مأسوراً هنا بمعنى: مقبوراً، الواتر: الذي يريدك بمكروه.

(٣)العانس: للمذكر والمؤنث أي مَنْ لم يتزوج، وخيرك مبسوط، أي كرمك لا ينقطع، وكذلك: زادك وكذلك: زادك حاضر.

(٤)شَدُّ الخَطْو: شدة الحملة على الأعداء – المتواتر: المتتالي.

(٥)فاعل "راع" الثانية يعود على الشد أو السلاح – الأغاني – ١٨٢/٢١.

(٦)يريح: يَرِدُ، ماجد: يريد نفسه، مالي: إبلي، المقتر: المقل. جمهرة أشعار العرب للقرشي، ص٤٥٥، ص٤٥٥، ت/ علي محمد البجاوي، ط/ نهضة مصر، ١٩٨١.

(٧)العافي: الضيف طالب المعروف بينما يستأثر هذا الصعلوك الذي يلومه بما لديه من خبز ولحم ولحم ولبن، حتى بشم وعروة من كرمه هَزُلَ.

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة

وأحسوا قراح الماء، والماءُ باردُ[1]

أتهزأ منيّ أن سَمِنْتَ وأن ترى

بجسمي مسَّ الحق، والحق جاهدُ[2]

الصعلكة والبطولة من خلال قصيدة متكاملة.

مرت بنا الظروف التي عاشها الصعلوك الجاهلي، ومكونات شخصيته، والعوامل التي دفعت به إلى جحيم الصعلكة، وكان ذلك بشواهد منتزعة من قصائد أو مقطوعات للصعلوك نفسه، وما الشاهد إلاَّ دليل يوضح ما يذهب إليه الباحث، ويؤكده. ويظل تذوق الشعر، وجماله، وإيقاعاته بمنأىَ عَمَّا قدمناه من شواهد شعرية وما علينا إلاَّ أن نقدم عملاً متكاملاً، ذا موضوع، وتراكيب وصور فنية وإيقاعات، فالقصيدة كائن حي، لا يتمزق، ولا يتشقق إلى أغراض، كائن ذو أجزاء متماسكة، متجاوبة، لا غنىً لجزء عن الآخر، وإلاَّ تفتت، وتشوه جمالها.

وفي قصيدة الشنفري " ألا أم عمرو أجمعت فاستقلَّت"[3]، عالم الحب، والشوق، والرقة، والمرأة التى حازت من صفات الكمال، والجمال، ما تتوق أي امرأة جاهلية أن تكونها، وهذه الرقة صادرة عن صعلوك، سفَّاك للدماء، شجاع، عدَّاء، جَسُور، لا يرحم،

---

(١)الجسم هنا: الطعام، الماء القراح: الذي لا يخالطه لبن ولا غيره، وقوله: والماء بارد (كناية عن فصل الشتاء).

(٢)المفضليات– ص١٠٨، ت/ شاكر، ط/ دار المعارف، السابعة.

(٢) المفضليات– ص١٠٨، ت/ شاكر، ط/ دار المعارف، السابعة.

ما هذا؟ هل هو تناقض؟، لا، إنه الإنسان الذي يبكي ويضحك، ويعنف ويسمح، إنسان ذو كرامة، وشهامة، ورجولة، وقلب محب، يشتاق، ويهزه الفراق، ويترقب لقاء قيثارة الجمال، والحنان، ألا إنها أم عمرو، وحبيبها الشنفرى:

وقبل أن نُسْلِم أنفُسَنا للشنفري، ونُعْطِيَهُ عقولنا وقلوبنا علينا ألاَّ نَنْسَى أننا في رحاب شعر جاهلي لشاعر تربىَ في الجاهلية، وارتوى من مبادئها وعاداتها وتقاليدها، وفنها في أشعارها. ولن يخرج أيُّ صعلوك لديه موهبة الشعر عن خصائص الشعر الجاهلي التي تواترت في معلقاته وقصائده ومقطَّعاته وأرجِازه بدرجة من درجات الالتزام. سواء أكان خالصاً أو منحرفاً قليلاً. ويأتي شعر الصعاليك في الجاهلية ليميل إلى المقطعات بدلاً من المطولات، وإلى الأراجيز بدلاً من القصيد، ويكون في مجموعه تعبيراً عن الذات، وموقفها من المجتمع القبلي، بينما سيطر المجتمع القبلي على القصيدة الجاهلية، ولِمَ لا. والشاعر الجاهلي شاعر القبيلة المتكلم بلسان حالتها، بينما كان الشاعر الصعلوك الجاهلي شاعر نَفْسِه، شاعر مشكلاته، وتمرده، وأحلامه، وشجاعته، وآلامه، شاعر عزيز النفس، كريم اليد، ثائر على الظلم.

وقصيدة الشاعر الصعلوك عادةً ما تدور حول موضوع رئيس له فروع، قد انبثقت منه لتعود إليه، هو لا يتوغل في الفكر البعيد، والثقافة السائدة، مثله مثل أغلب شعر الجاهلية، إنما هي أفكار قريبة محورها الشاعر نفسه، والقبيلة نَفْسِها، لذلك نراه يميل إلى السَّرْد القصصي، ذي الحوار المتبادل بينه وبين صديقه أو صديقته، وليس هناك محل للمقدمة الطللية، وبدلاً منها تأتي قصة عن حب ضائع، أو حبيب مهاجر، أو حرمان من دفء البيت الذي تربى فيه. ونلاحظ أن الشاعر الصعلوك لا يتوغل في الصورة الفنية بتشبيهاتها ومجازاتها وكناياتها وتعريضاتها، والتراكيب اللغوية الفنية من تقديم وتأخير ...، ولا الإيقاعات وأدواتها، بل تأتي سَهْلاً رهواً، لا افتعال، تؤدي غرضاً محدداً في موضوع محدد.

وألفاظ الشاعر الصعلوك غير منتقاة، هي فصيحة لكنها غير رقيقة، وأحياناً تكون صادقة، فالشاعر الصعلوك لا يضع في حُسْبانه نقداً لنقاد، ولا حديث المجالس الأدبية. ولا

سيرورة شعره على ألسنة القاصي والداني، إنما هو شاعر ذاتي، يعبر عن ذاته ويحكي قصة حياته، وقصدة خلع القبيلة، وثورته عليها، وتمرده، وكأنه يتمثل بما قاله طرفة بن العبدْ:

إن كنـــتَ لا تَسْـــطيع دَفْـــع مَنِيَّتـــي فَـدَعني أبادرهـا بمـا ملكـت يـدي

وشعر الصعاليك شعر واقعي وعينه عين لاقطة مسجِّلة لما ترى، كما انفعلت به حتى لَيَصِفَ الدكتور يوسف خليف شعرهم بأنه "شعر شعبي" وفي هذا الوصف قدر كبير من الصحة[١]

الشنفري والحب:

ألا أمُّ عمـــرٍو أجْمَعـــت فاســـتقلَّتِ وماوَّدعـــت جيرانهـــا إذْ تولّـــتِ[٢]

وقـــد ســـبقتنا أمُّ عمـــرو بأمرهـــا وكانـــت بأعنـــاق المَطِـــيِّ أَظَلَّـــتِ[٣]

بِعَيْنَـيَّ مـا أَمسَـت فباتـت فأصـبحت فَقَضَّـت أمورهـا فاسـتقلّتْ فَوَلَّـتِ[٤]

فواكبـــدا علـــى أميمـــة بعـــدما طَمِعت، فَهَبْها نعمةَ العيش زَلَّتِ[٥]

فياجـــارتي وأنـــت غيـــر مليمـــة إذا ذُكـــرت، ولا بـــذات تَقَلَّـــتِ[٦]

لقـــد أعجبتنـــي لا سَـــقُوطاً قناعهـــا إذا مـا مشـت، ولا بـذات تَلَفُّـتِ[١]

---

(١)راجع كتاب "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" من ص٢٥٩ إلى ص٣١٩، ط/ دار المعارف الثالثة..

(٢)أجمعت: عزمت أمرها، استقلت: ارتحلت.

(٣)سبقتنا بأمرها: استبدت به، وكانت بأعناق المطيِّ أظلت: أى فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها.

(٤)بعينيَّ: يأسف أن يرى رحيلها، ولا حيلة له.

(٥)زلت: ذهبت، من قولهم زل عمره: ذهب.

(٦)مُليمة: من قولهم "ألام" إذا أتى بما يُلاَم عليه، تقلّت: تبغضت، والتبغض، مقابل: التحبب، وقوله "ولابذات تقلت" أي: ليست ممن يقال فيها أنها تقلت، وأضاف الفعل على تقدير : ولا بذات صفة يقال لها من أجلها: تقلَّت فلانة.

نبيتُ بُعيد النوم تهدي غبوقَها ... لجارتها، إذا الهدية قَلَّتِ[٢]

تحُلُّ بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ[٣]

كأن لها في الأرض نِسْياً تقصُّهُ ... على أَمِّها، وإن تكلمك تبلَّتِ[٤]

أميمةُ لاُ يخْزِي نثاها حَلِيلَها ... إذا ذُكِرَ النسوان عفت وجلَّت[٥]

إذا هو أمسى آب قُرَّة عينه ... مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظَلَّتِ[٦]

فدقَّت وجَلَّت واسبكرَّت وأُكملت ... فلو جُن إنسان من الحُسْن جُنَّتِ[٧]

فبتنا كأن البيت حُجِّر فوقنا ... بريحانة ريحَت عِشاءً وطُلَّتِ[٨]

بريحانة من بطن حَلْيةَ نوَّرت ... لها أرجٌ، ما حولها غير مُسْنِتِ[٩]

=

(١)يقول: لا يسقط قناعها لشدة حيائها، لا تكثر التلفت، فإنه من فعل أهل الريبة.

(٢)الغبوق: ما يُشرب بالعشي، تهديه لجارتها، أي تؤثرها به لكرمها، إذا الهدية قَلَّت: أي في الجدب حيث تنفد الأزواد، وتذهب الألبان.

(٣)تَحُلُّ بيتها: فعل متعدٍ بنفسه، ويُعدَّي أيضاً بالحرف، المنجاة: مفعلة من النجوة، وهي الارتفاع.

(٤)النسى: الشيء المفقود المنسي، تَقُصُّه: تَتَّبِعه، على أَمِّها: على قصد منها أن تعثر عليه. يقول:كانها من شدة حيائها إذا مشت كأنها تطلب شيئاً ضاع منها، لا ترفع رأسها، ولا تلتفت، تبلت: تنقطع في كلامها لاتطيله.

(٥)النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حَسَن أو سيء، يقال: نثا الحديث والخبر، حدث به وأشاعه، خليلها: زوجها.

(٦)آب: رجع، ولم يّسَلْ أين كانت: لأنها لا تبرح بيتها.

(٧)اسبكرَّت: طالت وامتدت.

(٨)حُجَّر: أحيط، ريحت: أصابها ريح فجاءت بنسيمها، وطُلَّت: أصابها الطَّلُّ، وهو: الندى، وقال "عشاءً، لأنه أظهر لرائحة الرياحين..

(٩)حَلْية: وادٍ بتهامة، أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة، وبطن حلية في حَزَن، أي أرض غليظة، ونبت الحَزَن أطيب من غيره ريحاً، والأرج: توهج الريح وتفرقها في كل جانب، المسنت: المجدب.

هذا ليس مقطعاً غزلياً، إنما هو زاوية من زوايا الصورة التي أبدعها الشنفرى، زاوية ترسم لنا تجربة حب دافئة بين الشنفرى وبين حبيبته أميمة، إنه يشتاق إلى أن يعيش حياة طبيعية، يبادل إنسانة ما حباً بحب، ويشتاق، ويترقب، ويسهر الليل، ويحكي للنجوم، ويفرح ويبكي، إن أميمة هي الحياة الطبيعية التي حرمته منها قبيلته، إن أميمة رائعة، بارعة، عرفت كيف تستولى على قلب هذا الشيطان، وتهزمه شوقاً، وتبكيه حُرُقاً، فيستسلم، وهو البطل.

لقد منح الشنفرى لأميمة أربعة عشر بيتا من صورته الكبرى التي جاءت في شكل قصيدة، قصيدة تتكون من ستة وثلاثين بيتاً، أي: قريباً من منتصفها.

إنها تجربة حب مؤلمة، استعرضها الشنفرى في شكل استرجاع للذكريات، وبدأها بمشهد الرحيل، ثم أخذ يلملم أطرافها، طرفاً طرفاً، من جانبها الرومانسي الحالم، مع تركيز الأضواء على حياء أميمة وعفتها، وترفعها عن الدنايا، ويتوقف أمام زوايا عديدة تجسد أميمة هذه، حتى يصل إلى التحام العاشق بمعشوقته، وكانت ليلة لا تنسى شاركه فيها النسيم الفواح والندى الخفيف، والطبيعة بأسرها، وكأنها تبارك هذا اللقاء الحميم.

ونلاحظ أن الشنفرى خاطب صاحبته بالكنية "أم عمرو" وباسمها "أميمة"، سواء أكانا حقيقيين أم حَرَكيين – أربع مرات، مما يشير إلى شدة تعلقه بها. كما نلاحظ أن القصيدة كلها بنيت على قافية "تاء التأنيث" المفتوحة، فقصة حب أميمة هو محور القصيدة، هي البداية وهي النهاية.

وقد بدأ الشنفرى تصويره بأن "أميمة" ودَّعت جيرانها "إذْ تولَّت"، فهي قد رحلت كما رحل هو، رحل عن الأمان حين أُخذ أسير فداء في بنى سلامان، ورحل عن الاستقرار والدفء العائلي حين اكتشف أنه ليس ابن الذي اشتراه ورباه في بيته، ورحل حين علم أن قاتل أبيه حرام بن جابر، ثم رحلَتْ أميمة وتركت الراحل الشنفرى يتمرد على الظلم الذي فرض عليه.

ونلاحظ أن الشنفرى اهتم بتفاصيل الموقف ولم يمر عليه مَرًّا سريعاً، ووسيلته في ذلك الوصل بحرف العطف "الفاء" و"الواو"، وكأنه يسترجع في ذهنه دقائق الموقف:

بِعَيْنيَّ ما أمْسَت فباتت فأصبحت

فقضَّت أموراً فاستقلَّت فَولَّتِ[1]

فدُقَّت وَحلَّت واسبكرَّت وأُكملت

فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جُنَّت[2]

هي جارته

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت

وما ودَّعت جيرانها إذْ تولَّت

وكان هو كلَّ الجيران بالنسبة لها، لكنها ما وَّدعت جيرانها إذ تولت، وتركت الشنفرى يتحدث عنها بالغيبة، ثم يخاطبها "فياجارتي" ثم يلتفت إلى نفسه أو إلى من يخاطبه "لقد أعجبتني"، ثم يضمها إليه في فعل واحد "فبتنا كأن البيت حُجِّر فوقنا" بريحانةٍ.

والشنفرى يتتبع الأحداث، وكأنه يخاطب نفسه ويذِّكرها حدثاً حدثاً، فأميمة "أجمعت" أي قررت، ثم "استقلت" أي رحلت، وما ودعت جيرانها "أي الشنفري"، وهذه هي القضية كلها: قررت ورحلت وما ودعت، وما بين اتخاذ القرار وتنفيذه سقط قَلْبٌ مُدَّرجاً بالدماء.

---

(١)بعينيَّ: أسلوب أسف، استقلت: رحلت.
(٢)فدقت: في تقاطيع جسمها، وجَلَت: أشرقت، واسبكرت: طالت، وأكملت: لم يعبها عيبٌ. عيبٌ.

كانت أميمة عنيفة، أو قل إنها كانت سليبة الرأي، مغلوبة على أمرها، لقد فاجأت الشنفرى بالرحيل بشكل أذهله، إنه يتلفت حوله فإذا القافلة التي تُقَّلِها تمر أمامه، فيها أميمة، إنها راحلة.

فواكبـــدا علـــى أميمـــة بعـــدما طَمِعَـتْ فَهَبْهـا نعمـة العـيش زَلَّـتِ

احتشد الشنفرى لهذه التجربة بفيض من مشاعر الحب، والألفة، والود، والشوق، والحنان، وكانت نعمة العيش، وسراج الأمل، ولكنها "وَلَّت" فواكبدا على أميمة.

وعادة حين يتعرض الإنسان لموقف صادم لم يتوقعه تؤدي به المفاجأة إلى استعراض ذكريات غير متناسقة، لكنها في مجملها تصور عمق الحزن المخلوط بالشوق، الممزوج بالظلم، وتضغط على ذهنه ملامح "أميمة" التي حكم عليها بقوله "لقد أعجبتني"، فهي خجولة "لا سقوطا قناعها" وإذا مشت ليست "بذات تلفُّت"، كريمة "تبيت بُعيد النوم تُهدي غبوقها لجارتها"، بيتها حسن السمعة "تحل بمنجاة من اللوم بيتها"، ويعود ثانية إلى صفة الحياء عندها، وخفض الصوت في الحديث، إنهالا يخجل زوجها أن يتحدث عن أخلاقها إذا تحدث مجلس الرجال عن النساء المتزوجات. وزوجها مطمئن لسلوكها، فإذا غابت لم يسأل أين كانت.

ثم يعود فيجمع هذا الشتات من صفات أميمة في قوله:

فدقت وجَلَّت واسبكرت وأُكملت

فلو جُنّ إنسان من الحسن جُنَّت[1]

إنها كاملة الأوصاف، ولو أدى الجمال المفرط بامرأة إلى الجنون بِحسْن نفسها، لَجُنَّت أميمة، من روعة جمالها.

هذه التي كانت "نعمة العيش" للشنفرى، والتي "ماودَّعت جيرانها إذْ تولَّت" جمعها بالشنفري بيت، يصفه الشنفري، وهو يقصد الساعة التي مرت به معها، بقوله:

"كأن البيت حُجِّر فوقفنا بريحانة، ريحت عِشاءً وطلَّتِ"، قد أحيط هذا البيت ساعة لقائهما برائحة الأزهار والرياحين، دفعت بها ريح طيبة، وكانت مُنَدَاَةً، فاجتمع الحسن والحب والرياحين تحت سقف ضم عاشقين، سقف قريب من بطن حَلْيَة: الأرض الريانة بالخضرة والأزهار، والأريج الفوَّاح، وأميمة والشنفري، وذكريات لا تغيب.

الشنفرى الصعلوك

هذا العاشق الصعلوك، يكشف لنا عن جُرح غائر في قلبه، عن لون من ألوان الحرمان، والعَوَز العاطفي، حتى الحب الذي تمنى أن يحتضنه، ويظلل سقف قلبه، قد فقده حين أجمعت أم عمرو أمرها "فاستقلتِ "وما ودَّعت جيرانها إذْ تولَّت"، فَلْيَعُد إلى أرض الواقع، ويهبط من السماء التي كان يحلق فيها ويترك سعادته التى ضَنَّ بها القدر عليه، فليعد إلى عصابة الصعاليك، الذي هو منهم، وتأبط شراً زعيمهم خاله، ويصفهم قائلاً:

---

(١)فدقت: في ملامح جسدها، وجلت: ازَّينت، واسبكرت: طالت، وأكملت: في أوصافها.
(٢)الباضعة: الشجة التي تشق الجلد ولا يسيل منها الدم، وهنا القاطعة للطريق للسلب، ويعنى أنهم قوم غزاة، حمر القسى: غزوا مرة بعد مرة، فاحمرَّت قسيهم للشمس والمطر، بعثتها: جمعتها بعد تفرق وغزوت بها، لما يُشَّمتُ" يُدْعا عليه بالخيبة.

أمشـي علـى الأرض التـي لـن تَضُـرَّنى لأنْكِـيَ قوْمـاً، أو أصـادف حُمَّتـي[٢]

أمشـــي علـــى أيْـــن الغّـــزاةِ وبُعّْـــدها يُقَرَبُنـــي منهـــا رواحـــي وغُـــدْوتي[٣]

الشنفرى هنا قد خرج من اللحن الهامس، إلى الإيقاع الصارخ، من قوله:

فَـدَقَّتْ وجَلَّـتْ واسْـبَكَرّت وأكملـت فلـو جُـنَّ إنسـان مـن الحُسّـن جُنَّـتَ

إلى قوله:

وباضـــعة حُمْـــر القِسِـــيِّ بعثتُهـــا ومـــن يَغْـــزُ يغـــنم مَـــرَّةً ويُشَـــمَّتِ

إنها طبول المعركة، والغزو، وقطع الطريق، ونهب الأغنياء، واستعراض الشجاعة، والبطولة، والاستخفاف بالموت، والاستهانة بالحياة.

والسؤال، كيف يجتمع هذان النقيضان؟ أرى، أن القول الهامس، أدى إلى دق الطبول، وصارا وجهين لشيء واحد هو الشفنرى ،قد قضِي على اللحن الهامس بالرحيل، وعلى الذي يتغنى به بالحرمان، ومع أسباب أخرى تكاتفت، فأفرزت دق الطبول:

لقد خرج الشنفري وجماعته من الوادي الذي بين مِشْعِل وبين الجبا، وذِكْر أسماء الأماكن ظاهرة منتشرة في الشعر الجاهلي، فبها يحددون المسافات، ويعرفون الأيام التي استغرقتها القوافل في رحلتها، وطبيعة المسالك التي سلكتها والمشقة التي

---

(١)مِشْـعَل والجبـا: موضـحان، هيهـات: يعنـي أن المسـافة بينهمـا بعيـدة، وأنشـأت سُـرْبتي، السُّـرْبة: الجماعة، وأنشأتها: أى: أظهرتهم من مكان بعيد، يصف بعد مكانه فى الأرض طلباً للغنيمة .

(٢)أمشِيِّ: إشارة إلى غزوه على رجليه، ولن تضرني: لا أخاف بها أحداً، أنكى: ينكيه نكاية: لأَغْزُو قوماً، والحمّة: المنية.

(٣)أين الغزاة: تعب الغزوة، يقربني منها رواحي وغدوتي: يعرفني مسالكها ذهابي وعودتي فيها.

عانتها، ليصلوا إلى مكان نهاية المرحلة، والعربي الجاهلي يعرف مواقع الجبال، والوهاد، والطرق الوعرة والطرق السهلة، والطرق الآمنة و الطرق المزروعة بالصعاليك.

بعد أن يصف شجاعة جماعته، وتعوّدهم الغزو، وتعرضهم للكسب والخسارة فيه، يصف قدرته الخارقة على المشي، والمشي صنو العدو، من يمشي طويلا يعدو أطول، إنه يقدم تهاونه بالموت من أجل تحقيق غرضه، وخبرته بالمسالك، وصبره على الجوع، وتصميمه على الفوز، ونلاحظ إنه هنا يقرن الغُنْم بالهزيمة، والنصر بالموت، والإقدام بالخبرة، وهكذا يكون الصعلوك.

الشنفرى وتأبط شراً

الخال وابن أخيه، الصعلوك الصغير والصعلوك الكبير، العداء الصغير والعداء الكبير، التلميذ وأستاذه، أم العيال وأحد العيال، فليس بعيداً حين يُقتل ابن الأخت، أن يرثيه خاله قائلاً:

على الشنفرى ساري الغمام ورائحٌ

غزير الكُلَي وصيِّبُ الماءِ باكر[1]

عليك جَراءٌ مثلُ يومك بالجبا

وقد أرْعَفِت منك السيوفُ البواتُر[2]

فإنك لو لاقيتني بعد ما ترى وهلُ يلْقَيْن مَنّ غيبته المقابر[3]

---

(١)الكُلى: جمع كُلوة، وتطلق على أسفل السحاب، يدعو له بأن يسقى قبره، ساري الغمام، والسحاب الغزير الماء.

(٢)الجبا: مكان موقعة الشنفري التي قتل فيها، أُرْعفت: قطَّرت السيوف منك القواطع، أي: عليك جزاء من الغيث بمقدار ما أسالته سيوفك من الدم في هذا اليوم.

(٣، ٤) جملة: "وهل يلقين من غيَّبتُه المقابر، اعتراض بين الشرط وجوابه، أنتمى: انتسب، ثائر، آخذ الثأر، يقول: إنني بعد موتك إما مقدم على غارة وإما راجع من ثأر، كما كنت تفعل في حياتك.

لأ لفيتنـــي فـــي غـــارة أنتمـــي لهـــا إليـــك وإمـــا راجعـــاً أنـــا ثـــائر[١]

فـــلا يَبْعّـــدَن الشـــنفري ســـلاحه الـــ حديـــد وشـــد خَطْـــوُهُ متـــواتر[٢]

إذا راع روْع المـــوت راع وإن حمـــى حمـــى معـــه حُـــرٌ كـــريمٌ مصـــابر[٣]

ويكمل الشنفري حديثه في قصيدته عن تأبط شراً، الذي وصفه بأنه "أم عيال"، قائلاً:

وأم عيـــالٍ قـــد شـــهدتُ تَقـــوتُهم إذا أطعمـــتهم أوْ تَحَـــت وأقلَّـــتِ[٤]

تخـاف علينـا العَيْـل إن هـي أكثـرت ونحـــن جيـــاعٌ، أيَّ آلٍ تَأَلَّـــتِ[٥]

ومـا إن بهـا ضِـنٌّ بمـا فـي وعائهـا ولكنهـا مـن خيفـةِ الجـوعِ أبْقَـتِ

مصـــعلكة لاَ يْقصُـــرُ السِّـــتْر دونهـــا ولا تُرْتَجـــي للبيـــت إن تُبيِّـــتِ[٦]

لهـــا وَفْضَـــةٌ فيهـــا ثلاثـــون سَـــيْحفاَ إذا آنَسـتْ أُولَـى العَـدِيِّ اقشعرت[٧]

إذا فَزِعُـــوا طـــارت بـــأبيض صـــارم ورامـت بمـا فـي جَفْرِهـا ثـم سَلَّتِ[١]

---

(٢)وَشّدَّ: معطوف على سلاحه، والمراد بالشَّدِّ الحملة على الأعداء، متواتر: يتلو بعضه بعضاً.

(٣)فاعل راع الثانية يعود على الشد أو السلاح، يعني: إذا أفزع الموت الناس أفزعهم سلاحك أو شَدُّك، وإن حمى أحد حريمه حميتَ معه، كريماً صابراً.

(٤)أراد بأم عيالٍ تأبط شراً، لأنهم حين غزوا جعلوا زادهم إليه، وكان يقتر عليهم أن تطول الغزوة فيموتوا جوعاً، والأزد تسمى رأس القوم، وولي أمرهم "أماً"، أوْتحت: أعطت قليلاً، كأقَلَّت: وقد ساق القول عن تأبط شراً بضمير المؤنث، مساوقة للفظ "أم" .

(٥)العيل والعيلة: أي الفقر، أي آل تألت: أي سياسة ساست؟ من الفعل: آل يؤول أوْلا: إذا ساسس.

(٦)مصعلكة: صاحبة صعاليك، وهم الفقراء لا يقصر الستر دونها: لا تغطي أمرها، هي مكشوفة الأمر، ولا ترْتجي، أي: لا ينتظر منها أن تكون مقيمة بالبيت ولا تحارب، إلاَّ إذا رغبت هي في ذاك.

(٧)الوفضة: جعبة السهام، السحيف: السهم العريض النصل، آنست: أحست، العَدى: جماعة القوم جماعة القوم الراجلين للقتال، لا واحد له من لفظة، اقشعرت: تهيأت للقتال.

حسام كلون الملح صاف حديده جُرَازٍ كأقطاع الغدير المنعَّت[٢]

تراها كأذناب الحسيل صوادراً وقد نَهِلتُ من الدماء وعَلَّتِ[٣]

الشنفرى هنا يعطينا صورة دقيقة لخلية الصعاليك، إنهم ليسوا شرذمة من المشردين، الهاربين من العدالة، الخارجين على القبيلة، يسلبون ويقتلون، ينهبون ويفرون، إنما هم جماعة من المتمردين على الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية للقبيلة، متمردون على الذل والمهانة، رجال شجعان يقدمون حياتهم رخيصة من أجل مبادئهم التي آمنوا بها.

إنهم خلية لها قواعدها، وضوابطها، فيما بينها، ميثاق شرف محترم من كل من انتسب إليهم، لهم قائد مسموع الكلمة، وأوامر صارمة، ومخطط مدروس، ولكل جماعة صغيرة قائد، وإذا قتل تولى مكانه آخر قيادة هذه المجموعة، وكل المجاميع لها قائد عام.

لا يتحركون تحركاً عشوائياً، إنما هي خطة مدروسة، وتوقعات محسوبة، وتوزيع مهام حَسَب طاقة كل فرد منهم وما يجيده من الكر والفر، والضرب والقتل، والجمع للأموال، ثم تأتي مرحلة توزيع الغنائم، كل منهم له نصيب، وللقائد نصيب، وللفقراء والمساكين نصيب، وللأسر المحرومة نصيب ...، إنه تنظيم صارم ومُلزم، وإلاَّ خرج الصعلوك من زمرة الصعاليك التي انضم إليها، ومن المحتمل أن يُقتل.

=

(١)الأبيض: السيف، الصارم: القاطع، الجفر: كنانة السهام.

(٢)الجراز: السيف القاطع، أقطاع: جمع قِطْع، كالقطعة، والمراد بإقطاع الغدير أجزاء الماء يضربها الهواء، فتنقطع ويبدو، بريقها، المنعَّت: مبالغة من النعت، وهو الوصف بالحسن.

(٧) الحسيل جمع حسيلة، وهي أولاد البقر– شبه السيوف بأذناب الحسيل، إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها. والنهل والعلل هنا: للسيوف.

ويدهشنا هذا المجاز الرائع الذي أطلقه الصعاليك على قائدهم، إنه "أم عيال"، وفي اللسان عن الشافعي قال:

العرب تقول للرجل يلي طعام القوم وخدمتهم، هو أمهم والأزد تسمى رأس القوم وولي أمرهم "أما"[1]، انقلب الصعاليك أطفالاً، تركوا زادهم إلى أمهم الذي يقودهم، لأنه يقوم على سياسة الحملة، ويحرص على ألاَّ يظلم أحداً، أو يجوّع أحداً، إنهم لا يستمتعون بمنظر جميل على حافة غدير رقراق، إنهم في مواجهة صارمة مع الجوع والعطش، في مواجهة مخاطر القحط في الصحراء، والريح السَّموم، والأفاعي، والحشرات والأسود، وإذا جاع الجائع، وضاق صدره به تغير سلوكه وتحول إلى ذئب لا تؤمن عواقبه، لكل هذا كان الطعام والشراب في حوزة القائد، تأبط شراً.

ويُصِرُّ الشنفرى على إطلاق لقب "أم عيال" على تأبط شراً، ويشاركه في هذا كله من يتولى سياسة الجماعة إذا خرجوا للغزاة، لقب له دلالات نفسية عميقة.

فالأم هي الأسرة، السكن، الرحمة، والتضحية، والقلب المفعم بالحنان، إنها أم عيال، مسئولة عنهم: تفكر فيهم، تطعمهم وتسقيهم، وتحميهم، وبالرغم من فرار هؤلاء الصعاليك من دفء الأسرة، وحضن الأم، إلاّ أنهم لم ينتزعوا أنفسهم من ذكريات الطفولة.

ونلاحظ أن الشنفري منذ أن تعرض لبيان مسئولية الأم التي هي قائد الجماعة، أنه استمر يؤنث الأفعال التي تخصها بالرغم من أنه يقصد خاله "تأبط شراً"، فأم العيال تقوت وتطعم وتخاف علينا الجوع ...، إلى أن تنتهي الصورة المتكاملة للقائد الأم تأبط شراً.

---

(١)انظر– هامش ص١١٠، من المفضليات، تحقيق شاكر.

ويتوقف الشنفري عند صفات هذا القائد الأم، إنه يضنّ بما في وعائه، ولكنه يخشى عضة الجوع، وهو لا يخفي عن الفريق سراً، ويستمر في زحزحة بعض صفات الأمومة ليحل محلها صفاتٍ ذكورية للإقامة في البيت شأن الأمهات الأخريات، فهي مقاتلة، ولها جعبة سهام عريضة النصل، إذا أحست نذير معركة انتفضت مشاركة، وإذا اشتركت في المعركة تشمر عن ساقها، غيورة. كقطيع الحمر الوحشية، وهذه الأم لها شجاعة نادرة تدفع بها أن تتقدم الفريق مقاتلة بشراسة. لايثنيها شيء، ولو كان حياتها، تحمل حسامها الأبيض كالملح، الصافي الحديد الباتر بمهارة.

كل هذه ليست صفة القائد تأبط شراً، أو أي قائد الجماعة من الصعاليك، بل هي صفة كل صعلوك منهم، إنه مقتول لا محالة، فليقتل من يقدر أن يقتله قبل أن تسيل دمه.

ويعود الشنفري إلى نفسه يحدثنا عن:

قاتل أبيه:

الخط الفني لتركيب قصيدة الشنفري لم يتشتت ويفقد ملامحه، فهو العاشق لأميمة الذي حرم من نعمة العيش معها. وهو أحد أفراد مجموعة صغيرة تأتمر بأمره، وتتسم بالشجاعة، والإقدام، وهو المستعرض لقدرته الفائقة على العدو، والقتل، والانتقام، وهو أحد أفراد خلية رئيسها تأبط شراً، إنه الصعلوك البطل، لم ينس قاتل أبيه، والديْن الذي في رقبته لأبيه، فمن قتل يقتل، ولو كان ابن المقتول صعلوكاً.

يقول الشنفري:

قتلنـــا قتـــيلاً مُهْـــديا بُمِلَبِّـــد جِمـــارَ مِنـــىً وسْـــط الحجـــيج

(١)مُهديا: محرما ساق الهَدْى، بملبد: بمحرم لبَّد رأسه أي: جعل في رأسه شيئاً من صمغ ليتلبَّد شعره، يريد: قتلنا رجلاً محرماً، برجل محرم، جمار أي: عند الجمار، المصوّت: الملبي.

جَزَيْنَـا سـلامانَ بـن مُفْـرِجَ قَرْضـها بمـا قـدَّمَتْ أيـديهم وأزلَّـت[1]

وهُنِّـئَ بـي قـوم ومـا إنْ هَنَّـأتهم وأصبحت في قوم وليسو بمُنيَتي[2]

شـفينا بعيـد الله بعـض غَلِيلنَـا وعوفٍ لدى المعْدَي أوانَ استهلَّتِ[3]

الشنفري ولد في قبيلة الأواس من الأزد، فأسرته بنو شبابة، وحين أسرت بنو سلامان رجلاً من بني شبابة، وأرادت بنو شبابة استرجاع رجلها، فأرسلت الشنفري العبد لبني سلامان، ورَبى هذا العبد في بيت أحد الرجال الطيبين على أنه ابنه – ثم يكتشف الحقيقة، أنه لا من بني شبابة، ولا من بني سلامان، إنه من الأواس، ابن رجل مقتول على يد حزام ابن جابر، فخرج من قيد القبيلة التي باعته، والأخرى التي مَنَّت عليه، ليجابه الفقر والعوز، والهوان، فتصعلك لينتقم، وقرر أن يقتل قاتل أبيه. وفي المكان الذي تم فيه قتل أبيه، وفي بطن مِنىً وسط الحجيج المصوِّت، الذي يجهر بالدعاء للآلهة الحجر.

والذي يستوقفنا أن الشنفري أطلق على حزام بن جابر لقب القتيل بالرغم من أنه كان يتحرك ويسعى بين الناس، ولكنه قد حكم على نفسه بأنه مقتول، مقتول، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غدٍ، والأمر الآخر أن الشنفري قد اختار المكان والموسم اللذين قتل فيه أبوه واصطاد القاتل ليقتله فيهما، في وسْط الحجيج بِمِنىً وكل منهُما قد لبَّد رأسه، وسحب كبشه، وفي يده الجمرات التي يُرْمى بها في منى، ولم يدر كلاهما أن أحدهما سيُقَتَل بالآخر.

---

(١)سلامان بين مفرج: هم الذين أسروه فداءً، ومنهم حرام بن جابر قاتل أبيه، أزلت: قدمت.

(٢)يريد، هُنئ بي بنو سلامان حين أخذوني في الفدية، وما انتفعوا بي، بمنيتى: أي، ليس هؤلاء القوم من أحب وأتمنى أن أكون بينهم .

(٣)الغليل: حرارة العطش، وهو هنا العطش إلى الثأر، عبد الله وعوف من بني سلامان بن مُفْرج، والمَعْدَي: موضع العدو، والمراد ساحة القتال، أوان استهلت، في الوقت التي ارتفعت فيه الأصوات للحرب.

ويتلفت إلى قبيلة بني سلامان، إنها التي قبلته، أسيراً، عبداً، وشيئاً مُهاناً، لولا هذا الرجل الطيب الذي اتخذه ولداً له، فكان ما قدمته قبيلة بني سلامان قرضاً غير حسن، ظاهره الرحمة، وباطنه الهوان، وبقتله قاتل أبيه السلاماني وفيّ القرض الذي في رقبته لبني سلامان، أو قل القيد الذي في قدميه لهذه القبيلة، ورأى الشنفرى أن ما فعله جزاءً، وما قدمته بنو سلامان قرضاً، وما قام به كان وفاءً لهذا القرض.

هذه الأبيات التي بدأت بـ "قتلنا" وانتهت ببيت "شفينا غليلنا" لها مذاق خاص، فيها روح النصر، والتشفي، وإراحة النفس من كابوس كان يجثم على تفكير الشنفرى، وجاءت بعد أبيات "أم عيالٍ" والفتيان المغاوير الذين معه، وكأن هذه الأبيات التي سبقت أبيات "قتلنا" قد استدعتها إلى خاطر الشنفرى، فالدم ينادي الدم، والقتل ينادي الثأر، والتعب يسعى إلى الراحة، وما كان للشنفرى أن يهدأ ضميره بعد أن عرف قاتل أبيه، ورآه يتنقل بين المجالس والأسواق، وبين الصحبة والخلان، فصمم الشنفرى أن يُلقي عن كتفه بهذه القضية التي تؤرقه، فوضع خطته، ونفذ قَتْلَته، واستراح ضميره، فتوالت عليه صور المهانة التي تعرض لها، حين بيع أسيراً، وحين خدع عن أبيه السلاماني وما كان بأبيه، وحين رأى قاتل أبيه رأى العين، وقضى عليه.

ومن البديهي أن تلح على ذهنه فكرة الموت، بالرغم من أنه يراه كما يرى الرمال، والجبال والعيون والأنهار ووحوش الصحاري، لكن هذه المرة يشعر أنه اقترب منه أكثر، ويحدد موقفه منه ويؤكدك لنفسه أنه لا يبالي، وأن كبائر انتصاراته ستبقى اسمه شاخصاً في ذاكرة بقية الصعاليك.

يقول الشنفري في خمسة أبيات يختتم بها قصيدته ذات السنة والثلاثين بيتاً.

إذا مـــا أتتنـــي ميتـــي لـــم أبالهـــا ولـــم تُـــذْر خـــالاتي الـــدموعَ وعمَّتـــي

ولــو لــم أرِمْ فــي أهــل بيتــي قاعــداً إذاً جـاءني بـين العمـودين حُمَّتـي[1]

ألا لا تَعُـــدْني إن تشـــكَيتُ خُلَّتـــي شفاني بأعلى ذي البْـرَيْقيْن غـدْوتي[2]

وإنـــي لَحُلْـــوٌ إن أُريـــدت حلاوتـــي وُمـرٌّ إذا نَفْـسُ العَـزوفِ اسـتمرَّت[3]

أبـــيٌّ لمَـــا آبـــى ســـريعٌ مبـــاءتي إلى كـل نفسٍ تنتحي فـي مَسَرَّتي[4]

إنه حديث النفس، حديث المواجهة بكل صدق، حديث تتصدر فيه الحقائق بعيداً عن الادعاء، والكذب، الشنفري يعيش حالة من سقوط الأقنعة، سقوط الفواصل، بين النقائض، حين تصير الحياة موتاً، والموت حياةً، والمتوقع قائماً، والمنتظر حاضراً، والنهاية المحتومة تلوح في الفضاء.

هنا يظهر معدن البطل الشنفرى، الذي ينظر إلى حياته الزائلة نظرة قبول، بلا خوف، "إذا أتتني ميتتي لم أبالها"، وذِكْر خالاته وعمته ودموعهن على موته. استدعى ذكر أهل بيته، الذى يرجو أن يعود إليهم. كما كان قبل أن يتصعلك، ويدعو على نفسه أن يسرع إليه الموت إن لم يفعل، ثم يرفض هذا الاستقرار بين الأهل، ويرجو من أصدقائه الحميمين ألاّ يزوروه إن أصيب بالمرض فشفاؤه موكول بقدرته الفائقة على العدو. إن لحظة المصارحة مع النفس تدفع به إلى أهل بيته وحياته بينهم، كما ترفع به أن يقع في التناقض، فيرفض المهادنة، ويصرُّ على المواجهة فيذكر قوته في عدوه، وقدرته على

---

(١)لم أَرِمْ: من الفعل رُمْت أَروم: لم أبرح، العمودين: لعله أراد بهما عمودَيْ الخباء، الحمَّة المنية.
(٢)الخُلَة: الخليل، يطلب من خليله أن يَعودَه إذا مرض، وذلك لأنه متطوّح يلزم القفر مخافة القبض عليه، ذن البريقين: موضع، العدوة: اسم المرة من العدو، يريد أن سرعة عدوه سلاح يشتفي به كراً وفراً.
(٣)العزوف: المنصرف عن الشيء، استمرَّت: استفْعلَت، من: المرارة، يقول: أنا سهل لمن ساهلني، مُرٌّ على من عاداني .
(٤)المباءة: الرجوع: تنتحي في مسرتي: تقصد إلى ما يسرني.

النجاة إن طُلب، ثم يعود إلى صعلكته، إنه حلو لمن أراد حلاوته، مُرٌّ إذا امتحن عداوته، أبيٌّ،مُحْسِنٌ مُضِرٌ، يرد الحسنة بمثلها، والإساءة بأشد منها.

وبعد هذه المقطوعة الموسيقية، المضطربة الأمواج، بين الرقة والصخب، بين الاستقرار والتمرد، بين الانتقام ومواجهة النفس، بعد كل هذا، قعد له أسيد بن جابر السلاماني، وحازم الفهمي بالناصف من أبيدة[1]، ومع أسيد ابن أخيه، ودارت معركة بينهم وبينه، وأسروه، ثم فتكوا به، وفي الأسر قال:

لا تقبرونـــــي إن قبـــــري محـــــرَّم علـيكم، ولكـن أبشـري أمَّ عـامر[2]

إذا احْتَملَتْ رأسي وفي الرأس أكثري وغـودر عنـد الملتقـى ثَـمَّ سـائري[3]

هنالـــك لا أرجـــو حيـــاةٌ تَسُـــرُّني سَـمِير الليـالي مُبْسـلاً بـالجرائر[4]

وانتهت صفحات الشنفري البطل، لكن لم تنته من كتب الأغاني والأماني والنوادر والأمثال. ويبقى السؤال هل هذا الصعلوك بطل؟ وهل كان أي صعلوك بطلاً؟ أقول: نعم، كان بطلاً حين كان العصر جاهلياً، بطلاً بمقاييس الحياة الجاهلية بعاداتها وتقاليدها، وطبيعة أرضها، ومواردها، وتاريخها، وحين ظهر الإسلام وتغيرت المبادئ، والمفاهيم، والثواب والعقاب، وصار العصر الجاهلي تاريخاً، ترك آثاره في ذاكرة العرب المسلمين، وصارت البطولة ذات مفهوم آخر بعيداً عن الصعلكة في الجاهلية التي انتزعت الإسلام قشرتها، وأفسح المجال لأبطال من نوع آخر، ومبادئ أخرى.

---

(١)موضع .

(٢)أم عامر: كنية الضبع، يريد ألاّ يقبروه، بل يتركوه للضبع تأكله.

(٣)وفي الرأس أكثري: أي رأسه هي أهم عضو في جسده، لما فيها من ذكاء وخبرة. ساتري: ما بقى مني.

(٤)سمير الليالي: طول الليالي، مبسلاً بالجرائر: مرهوناً بجرائمي.انظر الأغانى – ٢١/ ١٨٢ .

فالصعاليك بمنظور العصر الجاهلي أبطال، وبمنظور الإسلام لصوص وليسوا أبطالاً، فالبطولة لا تتغير لكن مفاهيمها نسبية.

المصـادر

١– د. أحمد كمال زكي– شعر الهذليين، ط/ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩م.

٢– الأصمعي– الأصمعيات، د/ أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط/ دار المعارف، ١٩٦٤م.

٣– ابن الأنباري– شرح المفضليات، ط/ بيروت، ١٩٢٠م.

٤– البغدادي– خزانة الأدب، ط/ بولاق.

٥– التبريزي– شرح ديوان الحماسة، ت/ محمد عبد القادر سعيد، الطبعة المصورة، دار القلم، بيروت.

٦– ابن دريد – الاشتقاق، ط/ جوتنجن، ١٨٥٤م.

٧– د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي، ط/ دار المعارف.

٨– عروة بن الورد – الديوان – شرح ابن السِّكِّيت، ط/ الجزائر، ١٩٢٦م.

٩– أبو الفرج الأصفهاني– الأغاني، ط/ بولاق، ط/ الهيئة المصرية العامة.

١٠– ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ت/ أحمد شاكر، ط/ الثالثة، ١٩٧٧م.

١١– القرشي – جمهرة أشعار العرب، ت/ علي محمد البجاوي، ط/ دار النهضة، مصر، ١٩٥٦م.

١٢– المرزُباني – الموشح، تحقيق/ علي محمد البجاوي، ط/ دار النهضة، مصر، ١٩٥٦م.

١٣– المرزوقي – شرح ديوان الحماسة، ت/ أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط/ دار الجيل بيروت.

١٤- المفضل الضبي – المفضليات، ت/ أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط/ دار المعارف، ١٩٤٢م.

١٥- الميداني – مجمع الأمثال، ط/ ١٨٦٦م/ ١٢٨٤هـ.

١٦- الهذليون – ديوان الهذليين، ط/ دار الكتب.

١٧- الهمداني – صفة جزيرة العرب – ط/ ليدن، ١٨٨٤م.

١٨- د. يوسف خليف – الشعراء الصعاليك، ط/ دار المعارف، الثانية، ١٩٧٨م.